عبد الملك بن مروان

أعلام الخلفاء
الأمويين

عبد الملك بن مروان

هو عبد الملك بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، أبو الوليد الأموي وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية.

ولد في سنة ستٍّ وعشرين، وقد كان عبد الملك قبل الخلافة من العباد الزهاد الفقهاء، الملازمين للمسجد، التالين للقرآن، وكان ربعة من الرجال أقرب إلى القصر، وكانت أسنانه مشبكة بالذهب، وكان أفوه مفتوح الفم، فربَّما غفل فينفتح فمه فيدخل فيه الذباب، فلهذا كان يقال له: أبو الذِّبان [1].

ثناء العلماء عليه:

قال نافع: لقد رأيت المدينة ما فيها شاب أشدُّ تشميرا-، ولا أفقه ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان.

وقال الأعمش عن أبي الزناد: كان فقهاء المدينة أربعة، سعيد ابن المسيِّب، وعروة، وقبيصة بن ذؤيب، وعبد الملك قبل أن يدخل الإمارة.

وعن ابن عمر أنه قال: ولد الناس أبناء وولد مروان أبا - يعني عبد الملك - ويقصد ابن عمر أن عبد الملك كان يفوق سنه، ويعلو فوق أقرانه.

وعن يحي بن سعيد قال: أول من صلّى ما بين الظهر والعصر عبد الملك بن مروان وفتيان معه. فقال سعيد بن المسيب: ليست العبادة بكثرة الصلاة والصيام، إنما العبادة التفكر، في أمر الله، والورع عن محارم الله. وقد صدق رحمه الله.

(1) البداية والنهاية، 377/11 - 379.

وقال الشعبي: ما جالست أحدا- إلا وجدت لي الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان، فإنّني ما ذاكرته حديثا- إلا زادني فيه، ولا شعرا- إلا زادني فيه. وروى البيهقي: أن عبد الملك وقع منه فلس في بئر قذرة، فاكترى عليه بثلاثة عشر دينارا- حتى أخرجه منها، فقيل له في ذلك، فقال: إنه كان عليه اسم الله عز وجل.

وروى ابن أبي الدينا، أن عبد الملك كان يقول لمن يسايره في سفره إذا رفعت له شجرة سيّحوا بنا حتى نأتي تلك الشجرة، وكبَّروا بنا حتى نأتي تلك الحجر، ونحو ذلك[1].

شهد عبد الملك بن مروان عدة أحداث سياسيةوعسكرية ساهمت في تشكيل فمره السياسي والعسكري، فقد شهد مقتل عثمان رضي الله عنه، وتولي على هجر في عهد معاوية ثم تولى ديوان المدينة بعد وفاة زيد بن ثابت، وشارك في الجهاد فقد خرج على رأس حملة إلى أرض الروم ويشتي هناك في سنة 42هـ، كما يذكر أنه غزا إفريقية مع معاوية ابن حديج وكلفه بفتح جلولا في بلاد الشمال الإفريقي وفي عهد يزيد كان يقول على ابن الزبير ما على الأرض اليوم خيرا- منه، كما أن علاقته بمصعب بن الزبير كانت حسنة، وأما عن دوره السياسي في عهد مروان بن الحكم، فقد تولى فلسطين وكان يبعث نائبا- عنه روح بن زنباع، ويمكن أن يكون ذلك ليبقى في دمشق قريبا- من إدارة الدولة لمساعدة والده هناك لاسيما أن الفترة التي تولى فيها والده الحكم كانت الدولة محاطة فيها بالأعداء من الداخل والخارج، وتولى أمرة دمشق عند ذهاب والده لفتح مصر، وهذه المهمة تدل على كفايته الإدارية وحزمه[2].

(1) البداية والنهاية، 379/11 - 385.
(2) الدور السياسي لأهل اليمن ص64 - 65.

ومن المواقف الصعبة في حياة عبد الملك مواجهته لجماعة التوابين[1] والقضاء عليهم حيث التقى التوابون بالجيش الأموي في عين الوردة من أرض الجزيرة إلى الشمال الغربي من صفين في عام 65هـ وخاضوا ضده معركة ضارية غير متكافئة بفعل قلة عددهم بالمقارنة مع عدد أفراد الجيش الأموي، أسفرت عن تدميرهم ومقتل زعمائهم [2].

وله من الأعمال: قتال الخوارج ومن أشهر فرقهم التي قاتلها الأزارقة [3] والصفرية [4]، والقضاء علي ثورة عبد الرحمن بن

(1) بعد أن عمّ الاضطراب أنحاء البلاد بعد موت يزيد وفرار عبيد الله بن زياد، شرع أنصار الحسين يتصلون ببعضهم البعض بهدف وضع خطة للثأر لدمه، إذ بعد استشهاده هزتهم الفاجعة وندموا على تقاعسهم عن نصرته، والدفاع عنه، معترفين بخطيئتهم بحماسة شديدة، لذلك لم يجدوا وسيلة يكفرون بها عن هذا التقصير ويتوبون إلى الله بها من هذا الذنب الكبير سوى الثأر للحسين، وأخذ الشيعة يعقدون الاجتماعات برئاسة سليمان بن صرد الخزاعي لدراسة الموقف، وأسلوب العمل الذي سيتبعونه وغلب على هذه الاجتماعات موضوع التوبة والغفران، وثم شرعوا في تجييش الناس، وخرج التوابون من معسكرهم في النخيلة في شهر ربيع الأول 65هـ وهو الموعد الذي حددوه لخروجهم وكانت المحطة الأولى في مسيرتهم الانتقامية في كربلاء حيث بلغوا قبر الحسين فاسترحموا عليه وبكوا وتابوا عن خذلانهم له، وبعد يوم وليلة من البكاء كان الحماس قد أخذ منهم حق العمق، فقرروا السير إلى الشام لقتال عبيد الله بن زياد باعتباره الرجل الذي أصدر الأمر بقتل الحسين، لأنهم وجدوا أنه الطريق الأجدى لتحقيق الانتقام.

(2) البداية والنهاية، 11/ 703، الكامل في التاريخ، 639/2، محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة الأموية، ص72.

(3) الأزارقة: هم أتباع نافع بن الأزرق، الذين يعدون أشد فرق الخوارج تطرفاً في الأفكار والمبادئ وجنوحاً إلى العنف، وكان زعيم هذه الفرقة هو أول من أحدث الخلاف بين الخوارج لتطرفه، فقد برئ من القاعدين، الذين لا يخرجون معه للقتال، كما قال بكفر من لم يهاجر إليه فضلاً عن إباحته أموال ودماء مخالفيه، وتكفيره لمرتكب الكبيرة وحكمه بخلوده في النار.

(4) الخوارج الصفرية هم أحد فرق الخوارج الرئيسية وفي تعيين نسبتهم أقوالاً عدة، فقيل إنهم أتباع زياد بن الأصفر، وقيل: ابن عبد الله بن صفار وقيل: عبد الله بن قبيصة وأطلق عليهم ذلك اللقب لأن العبادة أنهكتهم فاصفرت وجوههم فنسبوا إلى تلك الصفرة.

الأشعث[1] وحركة المختار بن أبي عبيد الثقفي [2].

وقد أثبت عبد الملك كفاءة عالية في إدارة الدولة وسياستها وكان غير هياب يمضي إلى هدفه بعزيمة ثابتة، ولا يعرف اليأس إلى نفسه سبيلا، ولا يتردد عن قيادة المعارك بنفسه، ولقد استطاع بعد جهود جبارة أن يعيد الوحدة ويجمع شمل الأمة الإسلامية وأن يصفي خصومه الواحد بعد الآخر، بالصبر والجلد والمثابرة، وعمل على توطيد دعائم دولته ونجح في ذلك نجاحا- فائقا-، ولم تكن تأخذه هوادة أو رحمة بكل من يحاول أن يعكر صفو الدولة أو يخرج عليها وقد استحق عبد الملك عن جدارة لقب المؤسس الثاني للدولة الأموية، بعد معاوية مؤسسها الأول، وقد عمل على توطين الأمن في البلاد وتفرغ للخوارج وقمع الثورات، ومن أشهر الحركات التي خرجت في عهده، حركة الأزارقة والصفرية وابن الأشعث واستطاع أن ينتصر عليها جميعا-، إن عبد الملك بن مروان أصبح أمير المؤمنين بعد مقتل ابن الزبير وبيعة المسلمين له ومذهب عامة أهل السنة والجماعة، أن

(1) هذه واحدة من الثورات العديدة التي قام بها أهل العراق ضد الدولة الأموي، ولم يكن نشوبها على أساس مذهبي كما هو الحال بالنسبة لثورات الخوارج والشيعة، بل دفع إليها الكراهية المتبادلة بين قائدها وبين والي العراق الحجّاج بن يوسف وقائد هذه الثورة هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي، وقد بدأت هذه الثورة العارمة من إقليم سجستان، ذلك الإقليم الذي أتعب الأمويين وكان كثير الانتقاض والتمرد عليهم.

(2) هو المختار بن أبي عبيد الثقفي الكذَّاب، كان والده الأمير أبو عبيد بن مسعود بن عمرو ابن عمير بن عوف بن عقدة الثقفي، أسلم في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ولم نعلم له صحبة استعمله عمر بن الخطاب على جيشٍ، فغزا العراق، وإليه تنسب وقعة جسر أبي عبيد، ونشأ المختار، فكان من كبراء ثقيف، وذوي الرأي، والفصاحة، والشجاعة والدّهاء وقلة الدين، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: يكون في ثقيف كذاب ومبير، فكان الكذاب هذا، ادَّعى أنَّ الوحي يأتيه، وأنه يعلم الغيب، وكان المبير الحجاج، قبّحهما الله، ظهر المختار بن أبي عبيد الثقفي على مسرح الأحداث بعد موت يزيد بن معاوية سنة 64هـ، وكان يسعى إلى السلطان بأي ثمن، فتقلب من العداء الشديد لآل البيت إلى ادعاء حبهم والمطالبة بثأر الحسين.

الإمامة يصح أن تنعقد لمن غلب الناس، وقعد بالقوة في موضع الحكم، إلا أنه يجب أن يفهم أن هذه حال ضرورة والضرورات تبيح المحظورات فهذه حال إلجاء واضطرار كأكل الميتة ولحم الخنزير، وقبولها لأنها خير من الفوضى التي تعم الناس. وعلى هذا فإنه يجب ألا توطن الأمة نفسها على دوام هذا الوضع، بل يجب عليها أن تعمل على تغيير الإمامة الناقصة بإمامة كاملة مستوفاة الشروط المطلوبة في الإمام الحق بالوسائل التي لا يكون فيها فتنة بين الناس، ويجب السعي دائما- لأن يكون الإمام آتيا- عن الطريق الصحيح وهو طريق أهل الحل والعقد، ومع إن إمامة المتغلب تنعقد نظرا- إلى حال الضرورة، إلا أن الغالبية العظمى من علماء المسلمين لم يجيزوا أن يكون القهر طريقا- لانعقاد إمامة الكافر للمسلمين، وإذ حال القهر يمكن أن يتسامح فيها في بعض شروط الإمامة كالعلم أو العدالة أو البلوغ، إلا أن شرط الإسلام لا يمكن أبدا- إسقاطه عن الإمام، وعلى هذا، فلو تغلب كافر على هذا المنصب فلا يجوز شرعا- - كما يرى ذلك الجمهور - السكوت على هذا الوضع ويجب خلع هذا المتغلب بقوة السلاحلأن الله سبحانه يقول:{ﭐﭑﭒﭓﭔﭕﭖ} [النساء: ١٤١].

أهتم عبد الملك بن مروان اهتماما- خاصا- بإدارة شؤون الدولة وسار على نهج معاوية في تطوير المؤسسات والاهتمام بالإصلاحات، وقد قام بتطوير الجهاز الإداري وتنشيطه، وقام بتعريب الإدارة والنقد وهو ما يعرف بحركة التعريب، كما استعان بنخبة من أمهر رجال عصره في الإدارة والسياسة، فقد كرّس عبد الملك كل وقته وجهده لتوطيد أركان الدولة وتنظيمها والسهر على سلامتها، حتى تركها قوية غنية مرهوبة الجانب مرعية السلطان، وقد أعاد عبد الملك تنظيم الحكم الأموي على أسس جديدة واستفاد من

سياسة معاوية ومن الأنظمة التي وضعها ولكنّ نزعته للتفرد بالسلطان والحكم جعلته يخالف معاوية رضي الله عنه في كثير من الأمور، فمعاوية كان يُشعر جلساءه وقواده وولاته على الأقطار أن لهم الحرية في النقد والقول، والرأي، أما عبد الملك فلا يشعرهم بشيء من ذلك، فهم بين يديه ليسيروا على هواه وليقدم إليهم الأوامر فينفذوها، فما كان يسمح لجلسائه بأن يجتزئوا من سلطانه شيئا-، وقد نظم دولته على هذا الأساس من التمسك بالسلطان والسيادة والانفراد ونظم وسائل الحكم تنظيما- جعله السيد المتفرد في دولته، ويبدو أن نظرته للنظام شملت دواوين الدولة، والولاة.

ولعل أهم أعمال عبد الملك بن مروان الإدارية هي تعريب الدواوين والتي نتج عنها تحقيق سيادة لغة القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وتعزيز مكانتها، وانتصارها على اللغات الأجنبية في الدولة، كالفارسية واليونانية، والقبطية، وظهور فئة مهمة من الكتاب العرب أو الموالي حلّوا محل الكتّاب الفرس والروم في إدارة الدواوين وظهور حركة الترجمة، من اللغات الأجنبية إلى العربية حيث كانت حركة تعريب الدواوين أول عملية ترجمة منظمة أدت إلى نقل الكثير من المصطلحات الأجنبية، كما كان تعريب الدواوين سبيلا- إلى تعريب الأقاليم والجاليات غير العربية، فكان هذا من أكبر العوامل في انتشار اللغة العربية، و تمكنت الدولة من تحقيق الإشراف التام على النواحي المالية والإدارية وضبط أعمال الدواوين وسجلات وأجبر الموالي لتعليم اللغة العربية لكونها الطريق التي تؤدي إلى الوظائف والمناصب العاليةوأوجد نظام إداري موحد وشامل للدولة [1].

(1) الصلابي، الدلة الأموية، 39/3.

لما احتضر عبد الملك دخل ابنه الوليد فبكى، وقال له عبد الملك: ما هذا؟ أتخن حنين الجارية والأمة، إذا مت فشمر واتزر، وألبس جلد النمر وضع الأمور عند أقرانها واحذر قريشا- يا وليد: أتقي الله فيما استخلفك فيه، واحفظ وصيتي، و انظر إلى أخي معاوية فصل رحمه واحفظني فيه، وانظر إلى أخي محمد فأمره على الجزيرة ولا تعزله عنها، أنظر إلى ابن عمنا علي بن عباس، فإنه قد انقطع إلينا بمودته ونصيحته وله نسب وحق فصله رحمه، واعرف حقه، وانظر إلى الحجّاج بن يوسف فاكرمه، فإنه هو الذي مهد لك البلاد، وقهر الأعداء، وخلص لك الملك وشتت الخوارج، وأنهاك وإخوتك عن الفرقة، وكونوا أولاد أمٍ واحدة، وكونوا في الحرب أحرارا-، وللمعروف منارا-، فإن الحرب لم تدن منية قبل وقتها، وإن المعروف يشيد ذكر صاحبه، ويميل القلوب بالمحبة، ويذلل الألسنة بالذكر الجميل، ولله در القائل:

إن الأمور إذا اجتمعنا فرامها :: بالكسر ذو حنقٍ وبطشٍ مفند
عزت فلم تكسر وإن هي بددت :: فالكسر والتوهين للمتبدد

ثم قال: إذا أنا مت فادعو الناس إلى بيعتك، ومن أبى فالسيف، وعليك بالإحسان إلى أخواتك فاكرمهن، وأحبهن إليَّ فاطمة، وكان قد أعطاها قرطي ماريا، والدرة اليتيمة، ثم قال: اللهم احفظني فيها[1].

كان عبد الملك يقول: ولدت في رمضان، وفطمت في رمضان، وختمت القرآن في رمضان، وأتتني الخلافة في رمضان، وأخشى أن أموت في رمضان، فلما دخل شوال وأمن مات، مات بدمشق سنة 86هـ يوم الجمعة وقيل الأربعاء وصلى عليه ابنه الوليد ولي عهده من بعده

(1) البداية والنهاية، 392/12، 393.

وكان عمره يوم مات ستين سنة، وقيل ثلاث وستين سنة وقيل ثمان وخمسين سنة، ودفن بين باب الجابية وباب الصغير [1].

مواقف من حياته :

فأعلم أنها ستكر حتى توفي نذرها:

ودخل أرطأة على عبد الملك بن مروان وكان شيخا كبيرا فاستنشده ما قاله في طول عمره فأنشده:

رأيت المرء تأكله الليالي ... كأكل الأرض ساقطة الحديد
وما ينبغي المنية حين تأتي ... على نفس ابن آدم من مزيد
فأعلم أنها ستكر حتى ... توفي نذرها بأبي الوليد

فارتاع عبد الملك وظن أنه عناه وعلم أرطأة أنه زل فقال يا أمير المؤمنين إني أكنى بأبي الوليد وصدقه الحاضرون [2].

رأي عبد الملك في الجّواري:

قال عبد الملك بن مروان: من أراد أن يتّخذ جارية- للمتعة، فليتّخذها بربريّة- ومن أراد للولد فليتّخذها فارسيّة-؛ ومن أرادها للخدمة فليتّخذها روميّة-.

حين جعلوك خليفة من بين رجال العالمين :

قيل: وفدت عزّة وبثينة على عبد الملك بن مروان فلمّا دخلتا عليه انحرف إلى عزّة، وقال لها: أنت عزّة كثير؟ قالت: لست لكثير بعزّة ولكنّي أمّ بكرٍ الضّمريّة. قال أتروين قول كثيرٍ فيك؟

(1) البداية والنهاية، 12/ 396، سير أعلام النبلاء، 246/4.
(2) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين. المكتب التجاري - بيروت، ص 30، 70.

لقد زعمت أني تغيّرت بعدها :: ومن ذا الذي يا عزّ لا يتغيّر
تغيّر جسمي والخليقة كالتي :: عهدت، ولم يخبر بسرّك مخبر

قالت: لست أروي هذا، ولكنّي أروي غيره حيث يقول:

كأنّي أنادي صخرة- حين أعرضت :: من الصّمّ لو يمشي بها العصم زلّت
صفوحا- فما تلقاك إلاّ بحيلةٍ :: فمن ملّ منها ذلك الوصف ملّت

ثمّ عطف على بثينة فقال لها: ما رأى جميل حين لهج بذكرك بين النّساء كلّهن؟ قالت: الذي رأى فيك النّاس حين جعلوك خليفة من بين رجال العالمين. فضحك حتّى بدت سنٌّ له سوداء، كان يخفيها، وأجزل جائزتهما وقضى حوائجهما.

فصار يجمعنا في بطنها الكفن:

ومن ذلك ما حكى جميلٌ بن معمر العذري: أنّه دخل على عبد الملك بن مروان، فقال له: يا جميل حدّثني ببعض أحاديث بني عذرة. فإنّه بلغني إنّهم أصحاب أدبٍ وغزلٍ. قال: نعم يا أمير المؤمنين، أعلمك أنّ آل بثينة انتجعوا عن حيّهم، فوجدوا النّجعة بموضع نازح فظعنوا، فخرجت أريدهم، فبينما أنا أسير إذ غلطت الطّريق وأجنّني الليل فلاحت لي نارٌ، فقصدها حتّى وردت على راعٍ في أصل جبل قد انحنى عنه إلى كهفٍ فيه، فسلّمت، فردّ عليّ السّلام، وقال: أظنّك قد غلطت الطّريق؟ فقلت: أجل. فقال: انزل وبت الليلة فإذا أصبحت وقفت على القصد فنزلت فرحب بي وأكرمني وذبح شاة، وأجّج ناره، وجعل يشوي ويلقي بين يدي، ويحدّثني في خلال ذلك. ثمّ قام بإزارٍ كان معه فوضع به جانب الخبا ومهّد لي محلا- خاليا- فنمت.

فلمّا كان في الليل سمعته يبكي إلى شخصٍ كان معه، فأرقت له ليلتي. فلمّا أصبحت طلبت الإذن فأبى، وقال: الضّيافة ثلاث. فجلست وسألته عن اسمه ونسبه وحاله، فانتسب فإذا هو من بني عذرة، من أشرفهم. فقلت: وما الذي جاء بك إلى هذا؟ فأخبرني أنّه كان يهوى ابنة عمٍّ له، وأنّه خطبها من أبيها فأبى أن يزوّجها إيّاها لقلّة ذات يده، وأنّه تزوّجها رجلٌ من بني كلاب وخرج بها عن الحي، وأسكنها في موضعه. وأنّه رضي أن يكون لزوجها راعيا- حتّى تأتيه ابنة عمّه فيراها. وأقبل يشكو قديم عشقه لها، وصبابته بها حتّى أتى المساء، وحان وقت مجيئها. فجعل يتقلقل ويقوم ويقعد، ثمّ وثب قائما- على قدميه، وأنشأ يقول:

ما بال ميّة لا تأتي كعادتها ... أعاجها طربٌ أو صدّها شغل
لكنّ قلبي عنكم ليس يشغله ... حتّى الممات وما لي غيركم أمل
لو تعلمين الذي بي من فراقكم ... لما اعتذرت، ولا طابت لك العلل
نفسي فداؤك، قد أحللت بي سقما- ... لو أنّ ما بي من سقمٍ على جبلٍ
تكاد من حرّه الأعضاء تنفصل ... لزال وانهدّ من أركانه الجبل

ثمّ قال لي: اجلس، يا أخا بني عذرة، حتّى أكشف خبر ابنة عمّي. ثمّ مضى فغاب عن بصري، فلم ألبث أن أقبل وعلى يديه محمول، وقد علا شهيقه ونحيبه، فقال: يا أخي هذه ابنة عمّي أرادت زيارتي فاعترضها الأسد فأكلها. ثمّ وضعها بين يديّ، وقال: على رسلك، حتّى أعود إليك. فغاب عن نظري فأبطأ، حتّى آيست من رجوعه، فلم ألبث أن أقبل ورأس الأسد على يديه فوضعه ثمّ، قال: يا أخي إنّك ستراني ميّتا- فاعمد إليّ وإلى ابنة عمّي فأدرجنا في كفنٍ واحدٍ، وأدفنّا

في قبرٍ واحدٍ، واكتب على قبرنا هذين البيتين:

كنّا على ظهرها والعيش في مهلٍ ... والشّمل يجمعنا والدّار والوطن
ففرّق الدّهر بالتّصريف إلفتنا ... فصار يجمعنا في بطنها الكفن

وردّ الغنم إلى صاحبها، وأعلمه بقصّتها.

ثمّ عمد إلى خناقٍ وطرحه في عنقه، فناشدته الله لا تفعل، فأبى وخنق نفسه حتّى مات. فلمّا أصبحت كفّنتهما ودفنتهما وكتبت الشّعر كما أمر، ورددت الغنم إلى صاحبها وأعلمته بقصّتهما، فحزن حزنا- خفت عليه الهلاك أسفا- على ما فرّط من عدم اجتماعهما.

الحجّاج وابنة عبد الله بن جعفر:

وتزوّج الحجّاج ابنة عبد الله بن جعفر، فلمّا دخلت عليه نظر إليها وعبرتها تجود على خدّها، فقال لها: بأبي وأمّي، ممّ تبكين؟ فقالت: من شرفٍ اتّضع، ومن ضعةٍ شرفت. فلمّا كتب إليها عبد الملك بن مروان بطلاقها، قال لها: إنّ أمير المؤمنين امرني بطلاقك. قالت: هو والله أبرّ بي ممّن زوّجك إياي. فلمّا مات أبوها لم تبك عليه، فقيل لها في ذلك، فقالت: والله أنّ الحزن ليبعثني، وإنّ الغيظ ليصمتني.

عبد الملك يعيب قولا- على نصيب:

وأمّا قول نصيبٍ:

أهيم بدعدٍ ما حييت وإن أمت ... فيا ليت شعري من يهيم بها بعدي

فإنّي لم أجد له تأويلا-. وعاب ذلك عليه عبد الملك بن مروان، وقال لجلسائه: أو لو كنتم قائلين هذا البيت ما كنتم تقولون؟ قالوا: لا

ندري، فكيف كان أمير المؤمنين قائلا-: قال: كان يقول:

أهيم بدعدٍ ما حييت فإن أمت :: فلا صلحت دعد لذي خلةٍ بعدي

أهدر دمه ولم يتمتّع بها:

نزل أعرابيٌّ من طيء، يقال له المثنّى بن معروف، بأبي جبر الفزاري فسمعه يوما- يقول: لوددت أنّي بتّ الليلة خاليا- ببنت عبد الملك ابن مروان. فقال المثنّى: أحلالا- أم حراما-؟ فقال: ما أبالي. قال: فوثب إليه فضرب رأسه برحالةٍ فشجّه، ثمّ ارتحل وهو يقول:

أبلغ أمير المؤمنين رسالة- :: على النّأي إنّي قد وترت أبا
نشرت على اليافوخ منه جبر
رحالة- :: لنصري أمير المؤمنين ولا
وما كان شيءٌ غير أنّي يدري
سمعته :: ينادي نساء المؤمنين بلا مهر

قال، فبلغ ذلك أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فأهدر دم أبي جبرٍ وبعث إلى المثنّى بصلة جزيلة.

أرادها لحسن ثغرها فقط:

وكانت خولة بنت منظور بن زياد الفزاري عند الحسن بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم، وكانت أختها عند عبد الله بن الزّبير، وهي أحسن النّاس ثغرا-، وأتمّهم جمالا-. فلمّا رأى ذلك عبد الملك بن مروان وقد قتل عبد الله بن الزّبير زوجها، ثمّ خطبها، فكرهت أن تتزوّجه وهو قاتل زوجها، فأخذت فهرا- وكسّرت به أسنانها. وجاء رسول عبد الملك فخطبها، فأذنت له ليراها، فأدّى إليها رسالته ورأى ما بها، فقالت: ما لي عن أمير المؤمنين رغبة، ولكنّي كما ترى، فإن أحبّني فأنا بين يديه، فأتاه الرّسول فأعلمه بذلك، فقال: أنا، والله، إنّما أردتها على حسن ثغرها الذي بلغني، وأمّا الآن فلا حاجة لي فيها.

قد عفوت عنه :

وحكى الهيثم بن عدي، عن ابن عبّاس، قال: كانت عاتكة بنت يزيد بن معاوية تحت عبد الملك بن مروان، وكان يجد بها ويحبّها حبّا- شديدا-، فغضبت عليه، فطلب رضاها بكلّ أمرٍ، فأبت حتّى أضرّ به ذلك وشكا إلى خاصّته. فقال له عمر بن الأسدي: ما لي إن أرضيتها؟ قال له: حكمك. قال، فخرج فأتاها وجلس بين يديها يبكي. فقال له خاصتها: ما لك يا أبا حفص؟ قال: لقد جئت إلى بنت عمّي في أمرٍ مهمٍّ عظيمٍ، فاستأذني لعلّها تقضي حاجتي. فقالت: ما بالك؟ فقال لها: قد عرفت حالي مع أمير المؤمنين عبد الملك، ولم يكن لي غير ابنين، فتعدّى أحدهما على الآخر فقتله. فقلت: أنا وليّ الدّم وقد عفوت. فقال أمير المؤمنين: ما أحبّ أن أعوّد رعيّتي هذا. وهو قتله بالغداة فنشدتك الله ألا كلّمته فيه، وسألته في إبقائه لي، فإنّك تجمعين في ذلك إحياءه وإحياء نفسي. فإنّه إن قتله قتلت نفسي. فقالت: ما أكلّمه. فقال لها: ما أظنّك تكسبين شيئا- أحبّ من إحياء نفسين.. وبكى بكاء- شديدا-: فلم يزل بها صواحبها وخدمها وحاشيتها حتّى قالت: عليّ بثيابي. فلبست، وكان بينها وبينه بابٌ قد ردمته. فأمرت بفتحه ثمّ دخلت. فأقبل أحد الغلمان فقال: يا أمير المؤمنين هذه عاتكة. قال: ويلك رأيتها؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. وإذا هي قد أقبلت وعبد الملك على سريره. فسلّمت، فسكت، فقالت: أمّا والله لولا مكان عمر بن بلال ما فعلت، ولا أتيتك والله. إن عدا أحد بنيه على الآخر فقتله، وهو الوليّ وقد عفا عنه، لتقتله؟ قال: أي والله، وهو راغمٌ. قالت: أنشدك الله أن لا تفعل. فدنت فأخذت بيده، فأعرض عنها، فأخذت أرجله فقبّلتها، فأكبّ عليها وضمّها إلى نفسه ورفعها إلى سريره، وقال: قد عفوت عنه. فتراضيا.

وراح عبد الملك فجلس مجلس الخاصّة، فدخل عمر بن بلال، فقال: يا أبا حفص ألطفت الحيلة في القيادة فلك حكمك! فقال: يا أمير المؤمنين، ألف دينارٍ ومزرعة بما فيها من الرّقيق والآلة. قال: هي لك. قال: ومرابض لولدي وأهل بيتي. قال: وذلك كلّه لك.. وبلغ عاتكة الخبر فقالت: ويلي على القوّاد خدعني.

أريحيّة عبد الملك بن مروان:

قال أبو عبيدة: كان بأرض الحجاز رجلٌ له ابنةٌ جميلةٌ فهويها ابن عمٍّ لها فبذل لها أربعة آلاف درهمٍ، فأبى أبوها أن يزوّجها منه، وأجدبت البادية، فدخل ابن عمّها على عمّه ذات يومٍ فشكا إليه ما يلقى. فقال له: قد كنت بذلت لنا أربعة آلاف درهمٍ، فأعطنا إيّاها، فأنت أحبّ إلينا لقرابتك. قال له: أجّلني شهرا- فأجّله، ولم يكن مع الفتى إلاّ ناقة-، فركبها ومضى إلى عبد الملك بن مروان فطلب الإذن فلم يؤذن له. فقال: إنّي رسول فلانٍ عامل أمير المؤمنين على الحجاز. فأدخل عليه من ساعته. قال: معك كتابٌ من فلان؟ قال: لا، قال فرسالةٌ؟ فأنشأ يقول:

ماذا يقول أمير المؤمنين لمن :: أدلى إليك بلا قربى ولا سبب
مدلّةٌ، عقله من حبّ جاريةٍ : موصوفةٍ بكمال الحسن ::
خطبتها إذ رأيت النّاس قد :: والأدب
لهجوا : بذكرها، والهوى يدعو إلى
فقلت، لي حسبٌ زاكٍ، ولي :: العطب
شرفٌ : قالوا: الدّراهم خيرٌ من ذوي
إنّا نريد ألوفا- منك أربعة- :: الحسب
فامنن عليّ، أمير المؤمنين، : ولست أملك غير الحسّ
بها :: والقتب
فما وراءك، بعد الله، مطّلبٌ : واجمع بها شمل هذا البائس
: العرب ::
أنت الرّجاء وأقصى غاية :

:: الطلـــــــــــــــــــــب
:

فضحك عبد الملك وأمر له بأربعة آلاف درهمٍ، وقال هذا صداق أهلك، وزاده أربعة- أخرى وقال له أولم بهذه، وأنفق عليها منها. فقبضها ومضى. فتزوّج بالجّارية [1].

والله ما أردت إلا ذلك!:

من المنقول عن ابن أخي الأصمعي قال: وجه عبد الملك بن مروان عامر الشعبي إلى ملك الروم في بعض الأمر له فاستكثر الشعبي فقال له من أهل بيت الملك أنتَ قال لا فلما أراد الرجوع إلى عبد الملك حمله رقعة لطيفة وقال إذا رجعت إلى صاحبك أبلغته جميع ما يحتاج إلى معرفته من ناحيتنا فادفع إليه هذه الرقعة فلما صار الشعبي إلى عبد الملك ذكر ما أحتاج إلى ذكره ونهض من عنده فلما خرج ذكر الرقعة فرجع فقال يا أمير المؤمنين أنه حملني إليك رقعة نسيتها حتى خرجت وكانت في آخر ما حملني فدفعها إليه ونهض فقرأها عبد الملك قال فأمر برده فقال أعلمت ما في هذه الرقعة قال فيها عجبت من العرب كيف ملكت غير هذا أفتدري لم كتب إلي بمثل هذا فقال لا فقال حسدني عليك فأراد أن يغريني بقتلك فقال الشعبي لو كـــــــان رآك يـــــــا أميـــــــر المـــــــؤمنين ما تسكثرني فبلغ ذلك ملك الروم ففكر في عبد الملك فقال لله أبوه والله ما أردت إلا ذلك!.

وذلك أني رجل مشؤوم:

وعن الأصمعي عن أبيه قال أتى عبد الملك بن مروان برجل كان

(1) ابن الجوزي، أخبار النساء، ص 1، 10، 18، 20، 32، 39، 56، 77.

مع بعض من خرج عليه فقال اضربوا عنقه فقال يا أمير المؤمنين ما كان هذا جزائي منك قال وما جزاؤك قال والله ما خرجت مع فلان إلا بالنظر لك وذلك أني رجل مشؤوم ما كنت مع رجل قط إلا غلب وهزم وقد بان لك صحة ما ادعيت وكنت لك خيرا- من مائة ألف معك فضحك وخلى سبيله[1]

فاني لا أعد انتقام غيري انتقاما:

وقال ابو الحسن: أربى غلام من بني علي على عبد الملك وعبد الملك يومئذ غلام فقال له كهل من كهولهم لما رآه ممسكا عن جواب المربي عليه لو شكوته الى عمه انتقم لك منه قال أمسك يا كهل فإني لا أعد انتقام غيري انتقاما.

شغلني الغضب له عن الحزن عليه:

و قال ابو الحسن: خاض جلساء عبد الملك يوما في قتل عثمان فقال رجل منهم يا أمير المؤمنين في اي سنك كنت يومئذ قال كنت دون المحتلم قال فما من حزنك عليه قال شغلني الغضب له عن الحزن عليه[2].

خبر الحجاج بن عبد الله الثعلبي مع عبد الملك:

كان عبد الله بن الحجاج الثعلبي من أشد الناس على عبد الملك بن مروان في طاعة ابن الزبير مع القيسية، فلما قتل ابن الزبير أرسل عبد الملك يطلب عبد الله بن الحجاج فلم يظفر به، فلما خاف عبد الله بن الحجاج أن يظفر به أقبل فدخل على عبد الملك في اليوم الذي يطعم فيه أصحابه فمثل بين يديه ثم، قال:

(1) ابن الجوزي، الأذكياء، ص16، 56.
(2) أبي عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق: المحامي فوزي عطوي، دار صعب - بيروت، الطبعة الأولى، 1968، ص 372.

منــع الفــرار فجئــت نحــوك هاربـــــــــــــــــا ⁝ جــيش يجــر ومقتــب يتلمــع

فقال: أي الأخابث أنت؟ فقال:

ارحـم أصـيبيتي هـديت فـإنهم ⁝ حجـل تـدرج بالشـربة جـوعُ

فقال: أجاع الله بطونهم، فقال:

مــال لهـم فـيمن يظـن جمعتــه ⁝ يوم القليب فحيز عنهم أجمع

فقال: أحسبه كسب سوء، فقال:

أدنـوا لترحمنـي وتقبـل تـوبتي ⁝ وأراك تــدفعني فــأين المــدفع

قال: إلى النار، فقال:

ضاقت ثياب الملبسين ونفعهم ⁝ عنــي فألبسـني فثوبـك أوسـع

قال: فنزع مطرفا- كان عليه فطرحه عليه، ثم قال له: آكل؟ قال: كل. فلما وضع يده على الطعام قال: أمنت ورب الكعبة، قال: كنت من كنت إلا عبد الله بن حجاج، قال: فأنا عبد الله بن حجاج، قال: أولى لك.

وقد روى لنا هذا الخبر عن طريق آخر، وفيه: أن عبد الله قال له: لا سبيل لك إلى قتلي، قد جلست في مجلسك وأكلت طعامك ولبست من ثيابك.

اللحانون من الخاصة:

قال أبو الزناد: كان الوليد بن عبد الملك بن مروان لحانا- كأني

أسمعه على منبر النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول: يا أهل المدينة. قال: وقال عبد الملك بن مروان لرجل من قريش: إنك لرجل لولا أنك لحان، فقال: وهذا ابنك الوليد يلحن، قال: لكن ابني سليمان لا يلحن، قال الرجل: وأخي فلان لا يلحن.

أشعر من مضى ومن بقي :

عن أبي عمرو الشيباني، قال: حدثني مروان بن أبي حفصة، قال: جلس عبد الملك بن مروان يوما- للناس على سرير، وعند رجل السرير محمد بن يوسف أخو الحجاج بن يوسف، وجعل الوفود يدخلون عليه ومحمد بن يوسف يقول: يا أمير المؤمنين! هذا فلان، هذا فلان، إلى أن دخل جرير بن الخطفي فقال: يا أمير المؤمنين! هذا جرير بن الخطفي، قال: فلا حياه الله، القاذف للمحصنات والعاضة لأعراض الناس [1] - فقال جرير: يا أمير المؤمنين دخلت فاشرأب الناس نحوي، ودخل قوم بعدي فلم يشرئب الناس إليهم، فقدرت أن

(1) العاضه: المغتاب، ويقال: العاضه: النمام، ويقال: الساحر، قال القاضي: ومنه الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه لعن العاضهة والمستعضهة، يعني الساحرة والمستسحرة، قال الراجز:

الماء من عضاههن زمزمه

وقيل في قول الله تعالى:{ٱبپپپ} [الحجر: ٩١] أقوال منها: هذا، وهو أن المشركين قالوا: هو سحر، وقيل: إنهم عضوه بأن آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، وقيل، بل اقتسموه بينهم استهزاء فقالوا: لفلان هذه السورة ولفلان هذه السورة، فعضوه كما تعضى الشاة وكما تجزأ أعضاء الجزور فتقسم وتوزع بين مقتسميها وهذا فيما يتضمن عنه بمشيئة الله وعونه كتابنا المسمى البيان الموجز عن علوم القرآن المعجز ونأتي على ما جاء فيه عن أهل العلم، وأصحاب التأويل والمفسرين، وعن أصحاب المعاني النحويين، ومن العضه السحر، ما أنشدنيه عبيد الله بن محمد بن جعفر الأزدي، قال: أنشدنا أحمد بن يحيى:

أعوذ بربي من النافثا ::: في عقد العاضه المعضه

وقال: يعني بهما الساحر، وقال أبو موسى الحامض: المعضه الذي يأتي بالأمر العظيم ثم يبهت.

ذلك لذكر جميل ذكرني به أمير المؤمنين، فقال عبد الملك: لما ذكرت لي قلت: لا حياه الله القاذف للمحصنات العاضه لأعراض الناس، فقال جرير: والله يا أمير المؤمنين ما هجوت أحدا- حتى أجزه عرضي سنة، فإن أمسك أمسكت، وإن أقام استعنت عليه وهجوته، فقال له: هذا صديقك أبو مالك سلم عليه - يعني الأخطل - فاعتنقه وقال: والله يا أمير المؤمنين ما هجاني أحد كان هجاؤه علي أشد من هجائه، إلا أني كنت أظن أنه يرشي على هجائي، فقال له الأخطل: كذبت وأتن أمك، قال له جرير: صدقت وخنازير أمك، فقال عبد الملك: أحضروا جامعة فأحضرت و غمز الوليد الغلام أن ناجز بها، فقال عبد الملك للأخطل: أنشد، فأنشد:

تأبد الربع من سلمي بأجفار ⁝ وأقفرت من سليمي دمنة الدار

حتى ختمها، فقال له عبد الملك: قضينا لك أنك أشعر من مضى ومن بقي.

من مدحنا فليمدحنا هكذا:

واستأذنت قيس عبد الملك في أن ينشد جرير فأبى، ولم يزل جرير مقيما- دهرا- يلتمس إنشاد عبد الملك وقيس تشفع له، وعبد الملك يأبى إلى أن أذن له يوما-، فأنشده:

أتصحو بل فؤادك غير صاح ⁝ عشية هم صحبك بالرواح

فقال عبد الملك: بل فؤادك يا بن اللخناء [1]، فلما انتهى إلى قوله:

تعزت أم حزرة ثم قالت :: رأيت الموردين ذوي اللقاح
تعلل وهي ساغبة بنيها : بأنفاس من الشبم القراح[2]

(1) اللخناء: المنتنة الريح.
(2) قال أبوبكر: الشبم: البارد، والقراح: الماء الذي ليس معه لبن، والساغبة الجائعة، قال

::
:

فلما انتهى إلى قوله:

ألستم خير من ركب المطايا ::: وأندى العالمين بطون راح

قال عبد الملك: من مدحنا فليمدحنا هكذا. فلما ختمها أمره بإعادتها، فلما أنشد:

أتصحو أم فؤادك غير صاح

لم يقل له ما قال في المرة الأولى، ولما ختمها أمر له بمائة ناقة بأداتها ورعاتها، فقال جرير: يا أمير المؤمنين! اجعلها من إبل كلب، وإبل كلب إبل كرام.

خبر وضاح اليمن:

عن هشام بن محمد بن السائب، قال: كانت عند يزيد بن عبد الملك ابن مروان أم البنين بنت فلان، وكان لها من قلبه موضع قال: فقدم عليه من ناحية مصر بجوهر له قيمة وقدر، قال: فدعا خصيا- له فقال: اذهب بهذا إلى أم البنين وقل لها: أتيت به الساعة فبعثت به إليك، قال: فأتاها الخادم فوجد عندها وضاح اليمن وكان من أجمل العرب وأحسنها وجها-، فعشقته أم البنين فأدخلته عليها، فكان يكون عندها فإذا أحست بدخول يزيد بن عبد الملك عليها أدخلته في صندوق

القاضي: ومن دعاء العرب: حلبت قاعداً وشربت بارداً، يريدون كنت ذا غنم تحلبها وأنت قاعد ولا إبل لك تحلبها قائماً، وشربت بارداً أي ماء محضاً، قال عبد الملك: لا أروى الله عيمتها، قال القاضي: العيمة: شهوة اللبن، يقال: عمت إلى اللبن أعيم عيمة، ومن دعاء العرب: ما له عام وغام وآم، فغام: قرم إلى اللبن ولم يقدر عليه، وآم: ماتت امرأته، كما قال الشاعر:

وأبنا وقد آمت نساء كثيرة ::: ونسوان سعد ليس فيهن أيم

معنى آمت نساء مات أزواجهن، وغام: عطش فلم يقدر على الماء.

من صناديقها، فلما رأت الغلام قد أقبل أدخلته في الصندوق فرآه الغلام ورأى الصندوق الذي دخل فيه، فوضع الجوهر بين يديها وأبلغها الرسالة، ثم قال: يا سيدتي هبي لي منه لؤلؤة، قالت: لا، ولا كرامة، فغضب وجاء إلى مولاه فقال: يا أمير المؤمنين! إني دخلت عليها وعندها رجل، فلما رأتني أدخلته صندوقا- فهو في الصندوق الذي من صفته كذا وكذا وهو الثالث أو الرابع، فقال له يزيد: كذبت يا عدو الله، جئوا في عنقه فوجأوا عنقه ونحوه عنه، قال: فأمهل قليلا- ثم قام فلبس نعله ودخل على أم البنين وهي تمتشط في خزانتها، فجاء حتى جلس على الصندوق الذي وصف له الخادم، فقال: يا أم البنين! ما أحبب إليك هذا البيت؟ قالت: يا أمير المؤمنين! أدخله لحاجتي وفيه خزانتي فما أردت من شيء أخذته من قرب، قال: فما في هذه الصناديق التي أراها؟ قالت: حليي وأثاثي، قال: فهبي لي منه صندوقا-، قالت: كلها يا أمير المؤمنين، قال: لا أريد إلا واحدا- ولك علي أعطيك زنته وزنة ما فيه ذهبا-، قالت: فخذ ما شئت، قال: هذا الذي تحتي، قالت: يا أمير المؤمنين! عد عن هذا وخذ غيره، فإن لي فيه شيئا- يقع بمحبتي، قال: ما أريد غيره، قالت: هو لك، قال: فأخذه ودعا الفراشين فحملوا الصندوق فمضى به إلى مجلسه فجلس ولم يفتحه ولم ينظر ما فيه، فلما جنه الليل دعا غلاما- له أعجميا-، فقال له: استأجر أجراء غرباء ليسوا من أهل المصر، قال: فجاء بهم فأمرهم فحفروا له حفرة في مجلسه حتى بلغ الماء، ثم قال: قدموا لي الصندوق فألقي في الحفرة ثم وضع فمه على شفره فقال: يا هذا! قد بلغنا عنك الخبر فإن يكن حقا- فقد قطعنا أثره وإن يكن باطلا- فإنما دفنا خشبا-، ثم أهالوا عليه التراب حتى استوى، قال: فلم ير وضاح اليمن حتى الساعة، قال: فلا والله ما بان لها في وجهه ولا في خلائقه ولا في شيء

حتى فرق الموت بينهما.

حقق الله لهم أمنياتهم:

عن الشعبي، قال: لقد رأيت عجبا-، كنا بفناء الكعبة أنا، وعبد الله ابن عمر، وعبد الله بن الزبير، ومصعب بن الزبير، وعبد الملك بن مروان، قال القوم بعد أن فرغوا من حديثهم: ليقم رجلٌ رجلٌ منكم فليأخذ بالركن اليماني ويسأل الله حاجته، فإنه يعطي من سعة.

قم يا عبد الله بن الزبير فإنك أول مولودٍ ولد في الهجرة، فقام فأخذ بالركن اليماني فقال: اللهم إنك عظيمٌ، أسألك بحرمة وجهك وحرمة عرشك، وبحرمة نبيك، ألا تميتني من الدنيا حتى تولي الحجاز ويسلم علي بالخلافة.

وجاء حتى جلس، فقالوا: قم يا مصعب بن الزبير، فقام فأخذ بالركن اليماني وقال: اللهم إنك رب كل شيءٍ وإليك يصير كل شيءٍ، أسألك بقدرتك على كل شيءٍ ألا تميتني من الدنيا حتى تولي العراقين، وتزوجني سكينة بنت الحسين بن علي عليهما السلام، وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله.

وجاء حتى جلس، فقالوا: قم يا عبد الملك بن مروان، فقام وأخذ بالركن اليماني، وقال: اللهم رب السموات السبع والأرضين السبع، ذات النبت بعد القفر، أسألك بما سألك المطيعون لأمرك، وأسألك بحرمة وجهك، وأسألك بحقك على جميع خلقك، وبحق الطائفين حول بيتك، ألا تميتني من الدنيا حتى تولي شرق الأرض وغربها، ولا ينازعني أحدٌ إلا أتيت برأسه، ثم جاء حتى جلس.

ثم قالوا: قم يا عبد الله بن عمر، فقام حتى أخذ بالركن اليماني، ثم

قال: أللهم إنك رحمنٌ رحيم، أسألك برحمتك التي سبقت غضبك، وأسألك بقدرتك على جميع خلقك، ألا تميتني من الدنيا حتى توجب لي الجنة.

قال الشعبي: فما ذهبت عيناي من الدنيا حتى رأيت كل رجل منهم قد أعطي ما سأل من الدنيا، وبشر عبد الله بن عمر بالجنة.

خبران يرويهما الزهري عن نفسه:

عن الزهري، قال: أتيت عبد الملك بن مروان فاستأذنت عليه فلم يؤذن لي، فدخل الحاجب، فقال: يا أمير المؤمنين إن بالباب رجلا- شابا أحمر، زعم أنه من قريش، قال: صفه فوصفه له، قال: لا أعرفه إلا أن يكون من ولد مسلم بن شهاب، فدخل عليه، فقال: هو من بني مسلم فدخلت، قال: من أنت؟ فانتسبت له وقلت: إن أبي هلك وترك عيالا- صبية، وكان رجلا- متلافا- لم يترك مالا-، فقال: لي عبد الملك: أقرأت القرآن؟ قلت: نعم بإعرابه، قال: وما ينبغي منه من وجوهه وعلله؟ قال: قلت: نعم، قال: إنما فوق ذلك فضل إنما يراد أن يعايا ويلغز به، قلت: نعم، قال: تعلمت الفرائض؟ قلت: نعم، قال: الصلب والجد واختلافهما؟ قلت: أرجو أن أكون قد فعلت، قال: وكم دين أبيك؟ قلت له: كذا وكذا، قال: قد قضى الله دين أبيك، وأمر لي: بجائزة ورزق يجري، وشراء دارٍ قطيعة بالمدينة، وقال: اذهب فاطلب العلم ولا تشاغل عنه بشيءٍ فإني أرى لك عينا- حافظة وقلبا- زاكيا-، وأئت الأنصار في منازلهم، قال الزهري وكنت أخذت العلم عنهم بالمدينة، فلما خرجت إليهم إذا علم جم فأتبعتهم حتى ذكرت لي امرأة نحو قباء تروي رؤيا فأتيتها، فقلت: أخبريني برؤياك، قال: فقالت: كان لي ولدان واحدٌ حين حبا، والآخر يتبعه، وهلك أبوهما

وترك واهنا- [1] وداجنا- [2] ونخلات، فكان الداجن نشرب لبنها ونأكل تمر النخلات، فإني لبين النائمة واليقظانة ولنا جديٌ فرأيت كأن ابني الأكبر قد جاء إلى شفرةٍ لنا فأخذها، وقال يا أمه! قد أضررت بنا وحبست اللبن عنا، فأخذ الشفرة وقام إلى ولد الداجن فذبحه بتلك الشفرة، ثم نصب قدرا- لنا ثم قطعه ووضعه فيها، ثم قام إلى أخيه فذبحه بتلك الشفرة، واستنبهت مذعورة وإذا ابني الأكبر قد جاء، فقال: يا أمه! أين اللبن، فقلت: يشربه ولد هذه الداجن، فقال: ما لنا في هذا من شيءٍ، وقام إلى الشفرة فأخذها ثم أمرها على حلق الداجن ثم نصب القدر، قالت: فلم أكلمه حتى قمت إلى ابني الصغير فاحتضنته فأتيت به بعض بيوت الجيران فخبأته عندهم، ثم أقبلت مغتمة لما رأيت، ثم صعد على بعض تلك النخلات فأنزل رطبا- ثم قال: يا أمه! أدني فكلي، قلت: لا أريد، ثم مضى في بعض حوائجه وترك القدر فإني لمنكبة على بليس [3] عندي إذ ذهب بي النوم فإذا أنا بآتٍ قد أتاني، فقال: مالك مغتمة؟ فقلت: لكذا وكذا، ولأن ابني صنع كذا وكذا، فنادى يا رؤياه يا رؤياه! فجاءت امرأةٌ شابةٌ حسنة الوجه طيبة الريح، فقال: ما أردت من هذه المرأة الصالحة، قالت: ما أردت منها شيئا-، فنادى: يا أضغاث يا أضغاث! فأقبلت امرأةٌ سوداء الخلقة وسخة الثياب دونها، فقال: ما أردت من هذه المرأة؟ قالت: رأيتها صالحة فأردت أن أغمها، قالت: ثم انتبهت فإذا ابني أقبل، فقال: يا أمه! أين أخي؟ قلت: لا أدري حبا إلى بعض الجيران، قالت: فذهب يمشي لهو

(1) الخادم: ويقال مهن الرجل مهنةً ومهنةً، وفلان في مهنة أهله ومهنة أهله، ويقال: مهن مهانةً من الهوان، ومن المهان بمعنى الخادم، قول الشاعر:

وهزئن مني أن رأين مويهناً ::: تبدو عليه شتامة المملوك

(2) الداجن هي الشاة من شياه البيوت التي تعلف.

(3) البلس: بعض ما يكون في رحل القوم من المتاع الذي يتكأ عليه.

أهدى إلى موضعه حتى أخذه وجاء به فقبله، ثم قعد فأكل وأكلت معه.

قاتلك الله من شيخٍ :

عن أبي مهدية قال أخبرني أبو عفير الدؤلي وكان شاعرا- قال: كنت عند عبد الملك بن مروان إذ دخل أبو الأسود الدؤلي وكان أحول دميما- قبيح المنظر، فقال له عبد الملك يمازحه: يا أبا الأسود لو علقت عليك عوذة تدفع عنك العين، فقال: إن لك جوابا- يا أمير المؤمنين، وأنشد:

أفنى الجديد الذي فارقتُ جدتهُ :: كرُّ الجديدين من آتٍ ومنطلق
لم يتركا ليَ في طولِ : شيئا- يخافُ عليه لذعةُ
اختلافهما :: الحدق

أما والله لئن كانت أبلتني السنون، وأسرعتْ إلي المنون، لما أبلت ذلك إلا في موضعه، ولرب يوم كنتُ فيه إلى الآنسات البيض أشهى منك إليهن في يومك هذا على عجبك بنفسك، وإني اليوم لكما قال امرؤ القيس:

أراهن لا يحببن من قل ماله :: ولا من رأين الشيب فيه وقوسا

ولقد كنت كما قال أيضا-:

يرعن إلى صوتي إذا ما سمعنه : كما ترعوي عيط[1] إلى صوت أعيسا[2]

قال له عبد الملك: قاتلك الله من شيخٍ ما أعظم همتك.

(1) العيط: جمع عيطاء، وهي الناقة الطويلة العنق.
(2) والأعيس: فحل أبيض تعلوه شقرة.

إهانة الحجاج لأنس وما نجم عنها:

عن عوانة بن الحكم الكلبي قال: دخل أنس بن مالك على الحجاج بن يوسف، فلما وقف بين يديه سلم عليه فقال أيها يا أنيس، يوم لك مع علي، ويوم لك مع ابن الزبير، ويوم لك مع ابن الأشعث، والله لأستأصلنك كما تستأصل الشأفة، ولأقلعنك كما تقلع الصمغة، فقال أنس: إياي يعني الأمير أصلحه الله؟ فقال: إياك سك الله سمعك [1]، قال أنس: إنا لله وإنا إليه راجعون، والله لولا الصبية الصغار ما باليت أي قتلةٍ قتلت ولا أي ميتةٍ مت. ثم خرج من عند الحجاج فكتب إلى عبد الملك بن مروان يخبره بذلك، فلما قرأ عبد الملك كتاب أنس استشاط غضبا- وصفق عجبا-، وتعاظمه ذلك من الحجاج. وكان كتاب أنس بن مالك إلى عبد الملك بن مروان: بسم الله الرحمن الرحيم إلى عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من أنس بن مالك، أما بعد، فإن الحجاج قال لي هجرا-، وأسمعني نكرا-، ولم أكن لذلك أهلا-، فخذ لي على يديه فإني أمت بخدمتي رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبتي إياه، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

فبعث عبد الملك إلى إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر، وكان مصادقا- للحجاج، فقال له: دونك كتابي هذين فخذهما واركب البريد إلى العراق، فأبدأ بأنس بن مالك صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فادفع كتابه إليه وأبلغه مني السلام وقل له: يا أبا حمزة قد كتبت إلى الحجاج الملعون كتابا- إذا قرأه كان أطوع لك من أمتك. وكان كتاب عبد الملك إلى أنس بن مالك: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين إلى أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت من

(1) قول الحجاج: سك الله سمعك يقال: استكت الأذنان واصطكت الركبتان.

شكاتك للحجاج، وما سلطته عليك ولا أمرته بالإساءة إليك، فإن عاد لمثلها فاكتب إلي بذلك أنزل به عقوبتي، وتحسن لك معونتي، والسلام، فلما قرأ أنس بن مالك كتابه وأخبر برسالته قال: جزى الله أمير المؤمنين عني خيرا- وعافاه وكافأه عني بالجنة، فهذا كان ظني به والرجاء منه. فقال إسماعيل بن عبد الله لأنس: يا أبا حمزة إن الحجاج عامل أمير المؤمنين وليس بك عنه غنى ولا بأهل بيتك، ولو جعل لك في جامعةٍ ثم دفع إليك لقدر أن يضر وينفع، فقاربه وداره، فقال أنس: أفعل إن شاء الله. ثم خرج إسماعيل من عنده فدخل على الحجاج، فلما رآه الحجاج قال: مرحبا- برجلٍ أحبه وكنت أحب لقاءه، فقال له إسماعيل: وأنا والله كنت أحب لقاءك في غير ما أتيتك به، قال: وما أتيتني به؟ قال: فارقت أمير المؤمنين وهو أشد الناس عليك غضبا- ومنك بعدا-، قال: فاستوى الحجاج جالسا- مرعوبا- فرمى إليه إسماعيل بالطومار، فجعل الحجاج ينظر فيه مرة ويعرق وينظر إلى إسماعيل أخرى، فلما نفضه قال: قم بنا إلى أبي حمزة نعتذر إليه ونترضاه، فقال له إسماعيل: لا تعجل، قال: كيف لا أعجل وقد أتيتني بآبدةٍ؟ وكان في الطومار: إلى الحجاج بن يوسف: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين إلى الحجاج بن يوسف: أما بعد، فإنك عبد طمت بك الأمور فسموت فيها وعدوت طورك، وجاوزت قدرك، وركبت داهية إدا-، وأردت أن تبورني، فإن سوغتكها مضيت قدما-، وإن لم أسوغها رجعت القهقرى، فلعنك الله عبدا- أخفش العينين منقوص الجاعرتين، أنسيت كاسب آبائك بالطائف وحفرهم الآبار ونقلهم الصخور على ظهورهم في المناهل يا ابن المستفرمة بعجم الزبيب؟! [1] والله لأغمزنك غمز الليث الثعلب

(1) ابن المستفرمة بعجم الزبيب: كانت المراة تستعمل عجم الزبيب لتضيق قبلها في ما ذكر

والصقر الأرنب، وثبت على رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا فلم تقبل له أحسانه ولم تجاوز له إساءته، جرأة- منك على الرب عز وجل، واستخفافا- منك بالعهد، والله لو أن اليهود والنصارى رأت رجلا- خدم عزير بن عزرة وعيسى بن مريم لعظمته وشرفته واكرمته، فكيف وهذا أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم خدمه ثماني سنين يطلعه على سره ويشاوره في أمره، ثم هو مع هذا بقية من بقايا أصحابه، فإذا قرأت كتابي هذا فكن أطوع له من خفه ونعله، وإلا أتاك مني سهم مثكل بحتفٍ قاضٍ و {ئۇ ئۇئۆئۆئۈئۈئې} [الأنعام: ٦٧].

يشكو والي السماوة إلى عبد الملك:

عن أبي عبيدة قال: ولى عبد الملك بن مروان صدقات كلبٍ رجلا- من بني أمية، وكانت الروم قد نزعته، وكان أشقر غضا-، فدخل أعرابي جلف جافٍ على عبد الملك في جفة الناس، فلما مثل بين يديه قال يا إنسان إنك مدبر مربوب، قال: أجل فما تشاء؟ قال: قد احتجبت بهذه المدرة ووليت خطابنا أصهب غضا- [1] كالقرعوش [2] طمطمانيا- [3] أطوما- [4] كأن وجهه جهوة قردٍ قد قشر بصرها، وكأن فاه سرم أتانٍ، قد قاشها عير فهي ترمز، إن كشرت بسر، وإن

بعض أهل العلم وهو حبه، والنوى كله يقال له عجم واحدته عجمة، قال الأعشى:

مقادك بالخيل أرض العدو ::: وجذعانها كلقيط العجم

قيل: صارت من صلابتها مثل النوى. وقال أبو عبيدة: عجم عجماً أي ليك لأنه نوى الفم فهو أصلب ليس بنوى خل ولا نبيذٍ فهو أصلب وأملس، وإنما أرارد صلابتها وضمرها، ولقيط أراد ملقوط مثل جريح ومجروح، ويروى كلفيظ العجم أي ملفوظ ملقى.

(1) الغضا: الغتم.

(2) القرعوش ولد البختية وهو لا ينجب ولا ينفع.

(3) الطمطاني: الأعجم.

(4) والأطوم: الذي لا يفهم ولا يفهم. وإنما أخذ من جلد الأطوم وهي دابة من دواب البحر صلبة الجلد، وقال قوم: هي السلحفاة.

خاطبت نهر، وإن تألفت زبر، فلا الكلام مدفوع، ولا القول مسموع، ولا الحق متبوع، ولا الجور مردوع، ولنا ولك مقام فيه ينص الخصام، وترجف الأقدام، وينتصف المظلوم، وينعش المهضوم؛ ها إن ملكك هناك زائل، وعزك حائل، وناصرك خاذل، والحاكم عليك عادل؛ فاكبأن عبد الملك وتضاءلت أقطاره وترادت عبراته في صدره، ثم قال: لله أبوك، أي ظلم نالك منا حتى أجاءك إلى هذا المقال؟ قال: ساعيك في السماوة، نهاره لهو، ومقاله لغو، وغضبه سطو، يجمع المباقط ويحتجن المشائط ويستنجد العمارط، فأمر عبد الملك بصرف العامل.

أيمن بن خريم لا يقاتل مصليا-:

عن الشعبي أن عبد الملك بن مروان قال لأيمن بن خريم بن فاتك: ألا تخرج فتقاتل معنا؟ فقال: إن أبي وعمي شهدا بدرا- مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمراني أن لا أقاتل رجلا- يصلي، فإن أعطيتني براءة- من النار قاتلت معك، فتركه. وهو الذي يقول:

فلست مقاتلا- رجلا- يصلي ... على سلطان آخر من قريش
له سلطانه وعلي وزري ... معاذ الله من سفهٍ وطيش
أأقتل مسلما- في غير جرم ... فليس بنافعي ما عشت عيشي

معاوية واللقمة التي لم تكتب له:

عن عبد الملك بن مروان قال: جلست مع معاوية على غدائه فأخذ لقمة- فهيّأها، وأخذ يتحدّث فوضعها، فأخذتها، فعل ذلك مرارا- يضعها وآخذها وألقمها، فسمعته يقول وهو يخطب: إن الرجل ليرفع اللقمة إلى فيه يراها من رزق الله له قد كتبها لغيره فيأكلها الّذي كتبت له.

الحجاج وابن الحنفية وشكوى الثاني لعبد الملك:

قال محمد بن هشام السّعدي التميمي: خرج الحجاج بن يوسف وابن الحنفية من عند عبد الملك بن مروان، فلما صارا في الطريق قال الحجاج لمحمد ابن الحنفية: لقد بلغني أن اباك كان إ ذا فرغ من القنوت يقول كلاما- حسنا- أحببت أن أعرفه، فتحفظه؟ قال: لا، قال: سبحان الله، ما أوحش لقاءكم، وأفظع لفظكم، وأشدَّ خنزوانتكم، ما تعدُّون الناس إلا عبيدا-، ولقد خضتم الفتنة خوضا- وقتلتم المهاجرين والأنصار. فنظر إليه ابن الحنفية وأنكر لفظه وأحفظه، فوقف وسار الحجاج. ورجع ابن الحنفية إلى باب عبد الملك فقال للآذن: استأذن لي، فقال: ألم تكن عنده قبل وخرجت آنفا-، فما ردَّك وقد ارتفع أمير المؤمنين؟ قال: لست أبرح حتّى ألقاه. فدخل عليه فقال: يا أمير المؤمنين، هذا محمد بن الحنفية مستأذنٌ عليك، فقال: ألم يكن عندي قبل، لقد ردَّه أمرٌ، ايذن له. فلما دخل عليه تحلحل عن مجلسه كما كان يفعل فقال: يا أمير المؤمنين هذا الحجاج أسمعني كلاما- تكمَّشت له [1]، وذكر أبي بكلام تقمّعت له [2]، وما أحرت حرفا-، قال: فما قال لك حتّى أعمل على حبسه؟ قال: وكأنمّا تفقأ في وجهه الرمّان ونخسه شوك، فخبره عمّا سأله عنه، فقال لصاحب شرطته: عليَّ بالحجاج السّاعة. فأتاه في منزله حين خلع ثيابه فحمله حملا- عنيفا-، وانصرف ابن الحنفية. فجاء الحجاج فوقفه بالباب طويلا- ثم قال: إيذن له، فدخل فسلَّم عليه، فقال له عبد الملك:

لا أنعم الله بعمروٍ عينا ... تحية السُّخط إذا التقينا

(1) تكمشت له " أي انقبضت منه.
(2) تقمّعت له " يقال: قد تقمَّع الرجل وانقمع إذا انخزل وانكسر.

يا لكع [1] وهراوة البقّار [2]، ما أنت ومحمد ابن الحنفية؟! قال: يا أمير المؤمنين، ما كان إلاّ خيرا-، قال: كذبت والله لهو أصدق منك وابرّ، ذكرته وذكرت أباه، فوالله ما بين لابتيها أفضل من أبيه؛ وما جرى بينك وبينه؟ قال: سألته يا أمير المؤمنين عن شيءٍ بلغني كان أبوه يقوله بعد القنوت، قال: لا أعرفه، فعلمت أن ذاك مقتٌ منه لنا ولدولتنا، فأجبته بالذي بلغك. فقال له عبد الملك: أسأت ولؤّمت، والله لولا أبوه وابن عمّه لكنَّا حيارى ضلاّلا-، وما أنبت الشعر على رؤوسنا إلاّ الله عز وجل وهم، وما أعزَّنا بما ترى إلا رحمهم وريحهم الطيبة، والله لا كلَّمتك كلمة- أبدا-، أو تجيئني بالرضا منه، وتسلَّ سخيمته. قال: فمضى الحجاج من فوره، فألفاه وهو يتغدَّى مع أصحابه، قال: فاستأذن فأبى أن يأذن له، فقال له بعض أصحابه: أتى برسالة أمير المؤمنين، فأذن له، فقال: إن أمير المؤمنين أرسلني أن أسلَّ سخيمتك، وأقسم أن لا يكلّمني ابدا- حتّى آتيه بالرضى منك، وأنا أحبُّ، برحمك من رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلاَّ عفوت عمّا كان، وغفرت ذنبا- إن كان. فقال: قد فعلت على شريطة فتفعلها، قال: نعم، قال: على صرم الدهر. قال: ثم انصرف الحجاج فدخل على عبد الملك فقال: ما صنعت؟ قال: جئت برضاه وسللت سخيمته وأجاب إلى ما أحبّ وهو أهل ذلك. قال: فأيُّ شيءٍ آخر ما كان بينك وبينه؟ قال: رضي على شريطة، على صرم الدهر، فقال: شنشنةٌ أعرفها من أخزم، انصرف. فلمّا كان من الغد دخل ابن الحنفية على عبد الملك فقال له: أتاك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: فرضيت وأجبته؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: ثم مال إليه فقال: هل تحفظ ما سألك عنه؟

(1) وقول عبد الملك: " يا لكع " يريد يا عبد أو يا لئيم.
(2) وقوله " " وهراوة البقّار " يعني عصا الراعي التي يذود بها البقر، يريد أنّه لا يصلح إلاّ لأداني الأمور.

قال: نعم يا أمير المؤمنين وما منعني أن أبثه غياه إلا مقتي له فأنّه من بقية ثمود. فضحك عبد الملك ثم قال: يا سليمان - لغليّم له - كاتبا- ودواة- وقرطاسا-، قال: فكتب بخطّه: بسم الله الرحمن الرحيم، كان أمير المؤمنين عليّ عليه السلام إذا فرغ من وتره رفع يده إلى السماء وقال: اللّهم حاجتي العظمى التي إن قضيتها لم يضرَّني ما منعتني، وإن منعتني لم ينفعني ما أعطيتني. فكّاك الرقاب، فكَّ رقبتي من النار، ربِّ ما أنا إن تقصد قصدي بغضب منك يدوم عليَّ، فوعزَّتك ما يحسّن ملكك إحساني، ولا تقبّحه إساءتي، ولا ينقص من خزائنك غناي، ولا يزيد فيها فقري. يا من هو هكذا اسمع دعائي وأجب ندائي، وأقلني عثرتي، وارحم غربتي ووحشتي ووحدتي في قبري، ها أنا ذا يا ربِّ برمّتي [1]. ويأخذ بتلابيبه ثم يركع. فقال عبد الملك: حسن والله رضي الله عنه [2].

ما تــرى؟

لما أتي عبد الملك بن مروان بأسرى بني الأشعث؛ قال لرجاء بن حيوة: ما ترى؟ قال: إن الله أعطاك ما تحب من الظفر فأعطه ما يحب من العفو! فعفا عنهم [3].

(1) ها أنا ذا يا ربٌ برمّتي " العرب تقول: أخذ فلان كذا وكذا برمَّته، يريدون أخذه كلّه واستوفاه ولم يغادر شيئًا منه؛ وكذلك قولهم أخذه بأسره، والأسر القيد، وبه سمّي الأسير أسيراً وهو الآخذ بمعنى المأخوذ، وكانوا يشدّونه بالقدِّ إذا أسروه. وأما الرّمة فالحبل البالي كانوا يشدُّون الأمتعة به، ومنه قول ذي الرّمة: أشعث باقي رمَّة التقليد وقيل: إنّما سمّي ذا الرمَّة لقوله هذا، وهو غيلان بن عقبة، فأمّا الرمّة بالكسر فالعظم البالي، ويقال: رمَّ العظم يرمّ وهو رميم، ومنه قول الشاعر:

والنيب إن تعر مني رمّةً خلقاً ::: بعد الممات فإني كنت أتَّئر

(2) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص 88، 110، ص 126، 127، 165، 175، 271، 273 - 274، 317، 348، 384، 475.

(3) ابن الحداد، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس، ص 24، 29.

لو سبق سماعه فعلى لأمسكت:

قال أبو الحسن المدائني: لما قتل عبد الملك بن مروان عمرو بن سعيد بعد ما صالحه وكتب إليه أمانا- وأشهد شهودا-، قال عبد الملك بن مروان لرجل كان يستشيره ويصدر عن رأيه إذا ضاق به الأمر: ما رأيك في الذي كان مني؟ قال: أمر قد فات دركه. قال: لتقولن. قال: حزم لو قتلته وحييت. قال: أو لست بحي؟ فقال: ليس بحي من أوقف نفسه موقفا- لا يوثق له بعهد ولا بعقد. قال عبد الملك: كلام لو سبق سماعه فعلى لأمسكت.

أشكو إليك الشرف يا أمير المؤمنين:

ودخل أبو الريان على عبد الملك بن مروان، وكان عنده أثيرا-، فرآه خائرا- [1]، فقال: يا أبا الريان، مالك خائرا-؟ قال: أشكو إليك الشرف يا أمير المؤمنين. قال: وكيف ذلك؟ قال: نسأل ما لا نقدر عليه ونعتذر فلا نعذر. قال عبد الملك: ما أحسن ما استمنحت، واعتررت يا أبا الريان! أعطوه كذا وكذا.

أتلوماني على هذا؟

ودخل أعشى ربيعة على عبد الملك بن مروان وعن يمينه الوليد، وعن يساره سليمان. فقال له عبد الملك: ماذا بقي يا أبا المغيرة؟ قال: مضى ما مضى وبقي ما بقي، وأنشأ يقول:

وما أنا في حقي ولا في :: بمهتضم حقي ولا قارع سني
خصومتي : ولا خائف مولاي من سوء ما
ولا مسلم مولاي من سوء ما :: أجني
جنى : أقول الذي أعني وأعرف ما
وفضلى في الأقوال والشعر :: أعني
أنني : بما أبصرت عيني وما سمعت

(1) خار الحر والرجل يخور خؤورة: ضعف وانكسر.

وإن فؤادي بين جنبي عالم :: أذنى وإني وإن فضلت مروان وابنه : على الناس قد فضلت خير أب :: وابن :

فضحك عبد الملك، وقال للوليد وسليمان: أتلوماني على هذا؟ وأمر له بعشرة آلاف.

وفود عبد الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان:

قال بديح: وفد عبد الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان، وكان زوج ابنته أم كلثوم من الحجاج على ألفي ألف في السر وخمسمائة في العلانية، وحملها إليه إلى العراق، فمكثت عنده ثمانية أشهر. قال بديح: فلما خرج عبد الله بن جعفر إلى عبد الملك بن مروان، خرجنا معه حتى دخلنا دمشق، فإنا لنحط رحالنا إذ جاءنا الوليد بن عبد الملك على بغلة وردة ومعه الناس، فقلنا: جاء إلى ابن جعفر ليحييه ويدعوه إلى منزله. فاستقبله ابن جعفر بالترحيب؛ فقال له: لكن أنت لا مرحبا- بك ولا أهلا-؛ مهلا- يا بن أخي، فلست أهلا- لهذه المقالة منك؛ قال: بلى ولشر منها؛ قال: وفيم ذلك؟ قال: إنك عمدت إلى عقيلة نساء العرب، وسيدة بني عبد مناف، ففرشتها عبد ثقيف يتفخذها؛ قال: وفي هذا عتب علي يا بن أخي؟ قال: وما أكثر من هذا؟ قال: والله إن أحق الناس أن لا يلومني في هذا لأنت وأبوك، إن كان من قبلكم من الولاة ليصلون رحمي، ويعرفون حقي، وإنك وأباك منعتماني ما عندكما حتى ركبني من الدين ما والله لو أن عبدا- مجدعا- حبشيا- أعطاني بها ما أعطاني عبد ثقيف لزوجتها، فإنما فديت بها رقبتي من النار. قال: فما راجعه كلمة حتى عطف عنانه، ومضى حتى دخل على عبد الملك - وكان الوليد إذا غضب عرف ذلك في وجهه - فلما رآه عبد الملك قال: مالك أبا العباس؟ قال: إنك سلطت عبد ثقيف وملكته

ورفعته، حتى تفخذ نساء عبد مناف، وأدركته الغير. فكتب عبد الملك إلى الحجاج يعزم عليه أن لا يضع كتابه من يده حتى يطلقها. فما قطع الحجاج عنها رزقا- ولا كرامة يجريها عليها حتى خرجت من الدنيا. قال: وما زال واصلا- لعبد الله بن جعفر حتى هلك.

قال بديح: فما كان يأتي علينا هلال إلا وعندنا عير مقبلة من الحجاج، عليها لطف وكسوة وميرة، حتى لحق عبد الله بن جعفر بالله.

ثم استأذن ابن جعفر على عبد الملك، فلما دخل عليه استقبله عبد الملك بالترحيب، ثم أخذ بيده فأجلسه معه على سريره، ثم سأله فألطف المسألة، حتى سأله عن مطعمه ومشربه، فلما انقضت مسألته، قال له يحيى بن الحكم: أمن خبيثة كان وجهك أبا جعفر؟ قال: وما خبيثة؟ قال: أرضك التي جئت منها؛ قال: سبحان الله! رسول الله صلى الله عليه وسلم يسميها طيبة وتسميها خبيثة! لقد اختلفتما في الدنيا وأظنكما في الآخرة مختلفين. فلما خرج من عنده هيأ له ابن جعفر هدايا وألطافا- فقلت لبديح: ما قيمة ذلك؟ قال: قيمته مائة ألف، من وصفاء ووصائف وكسوة وحرير ولطف من لطف الحجاز. قال: فبعثني بها، فدخلت عليه وليس عنده أحد، فجعلت أعرض عليه شيئا- شيئا-. قال: فما رأيت مثل إعظامه لكل ما عرضت عليه من ذلك، وجعل يقول كلما أريته شيئا-: عافى الله أبا جعفر، ما رأيت كاليوم، وما كنا نريد أن يتكلف لنا شيئا- من هذا، وإن كنا لمتذممين محتشمين. قال: فخرجت من عنده، وإذن لأصحابه، فوالله لبينا أنا أحدثه عن تعجب عبد الملك وإعظامه لما أهدى إليه، إذا بفارس قد أقبل علينا، فقال: أبا جعفر، إن أمير المؤمنين يقرأ السلام عليك، ويقول لك: جمعت لنا وخش رقيق الحجاز أباقهم، وحبست عنا فلانة، فابعث بها إلينا - وذلك أنه حين دخل عليه أصحابه جعل يحدثهم عن هدايا ابن

جعفر ويعظمها عندهم؛ فقال له يحيى بن الحكم: وماذا أهدى إليك ابن جعفر؟ جمع لك وخش رقيق الحجاز وأباقهم وحبس عنك فلانة؛ قال: ويلك! وما فلانة هذه؟ قال: ما لم يسمع والله أحد بمثلها قط جمالا- وكمالا- وخلقا- وأدبا-، لو أراد كرامتك بعث بها إليك؛ قال: وأين تراها، وأين تكون؟ قال: هي والله معه، وهي نفسه التي بين جنبيه - فلما قال الرسول ما قال، وكان ابن جعفر في أذنه بعض الوقر إذا سمع ما يكره تصام، فأقبل علي فقال: ما يقول بديح؟ قال: قلت: فإن أمير المؤمنين يقرأ السلام ويقول: إنه جاءني بريد من ثغر كذا يقول: إن الله نصر المسلمين وأعزهم؛ قال: اقرأ أمير المؤمنين السلام، وقل له: أعز الله نصرك، وكبت عدوك؛ فقال الرسول: يا أبا جعفر، إني لست أقول هذا، وأعاد مقالته الأولى. فسألني، فصرفته إلى وجه آخر؛ فأقبل علي الرسول، فقال: يا ماص أبرسل أمير المؤمنين تهكم؟ وعن أمير المؤمنين تجيب هذا الجواب؟ قال: والله لأطلن دمك؛ فانصرف. وأقبل علي ابن جعفر فقال: من ترى صاحبنا؟ قال: صاحبك بالأمس؛ قال: أظنه، فما الرأي عندك؟ قلت: يا أبا جعفر، قد تكلفت له ما تكلفت فإن منعتها إياه جعلتها سببا- لمنعك، ولو طلب أمير المؤمنين إحدى بناتك ما كنت أرى أن تمنعها إياه، قال: ادعها لي. فلما أقبلت رحب بها، ثم أجلسها إلى جنبه، ثم قال: أما والله ما كنت أظن أن يفرق بيني وبينك إلا الموت؛ قالت: وما ذاك؟ قال: إنه حدث أمر وليس والله كائنا- فيه إلا ما أحببت، جاء الدهر فيه بما جاء؛ قالت: وما هو؟ قال: إن أمير المؤمنين بعث يطلبك، فإن تهوين فذاك، وإلا والله لا يكون أبدا-؛ قالت: ما شيء لك فيه هوى ولا أظن فيه فرجا- عنك إلا فديته بنفسي، وأرسلت عينيها بالبكاء؛ فقال لها: أما إذا فعلت فلا ترين مكروها-، فمسحت عينيها، وأشار إلي فقال: ويحك يا بديح! استحثها

قبل أن تتقدم إلي من القوم بادرة. قال: ودعا بأربع وصائف ودعا من صاحب نفقته بخمسمائة دينار، ودعا مولاة له كانت تلي طيبه، فدحست لها ربعة عظيمة مملوءة طيبا-، ثم قال: عجلها ويلك! فخرجت أسوقها حتى انتهيت إلى الباب، وإذا الفارس قد بلغ عني، فما تركني الحجاب أن تمس رجلاي الأرض حتى أدخلت على عبد الملك وهو يتلظى؛ فقال لي: يا ماص! وكذا أنت المجيب عن أمير المؤمنين والمتهكم برسله؟ قلت: يا أمير المؤمنين، ائذن لي أتكلم؛ قال: وما تقول يا كذا وكذا؟ قلت: ائذن لي يجعلني الله فداك أتكلم؛ قال: تكلم؛ قلت: يا أمير المؤمنين، أنا أصغر شأنا-، وأقل خطرا- من أن يبلغ كلامي من أمير المؤمنين ما أرى، وهل أنا إلا عبد من عبيد أمير المؤمنين، نعم قد قلت ما بلغك، وقد يعلم أمير المؤمنين أنا إنما نعيش في كنف هذا الشيخ، وأن الله لم يزل إليه محسنا-، فجاءه من قبلك شيء ما أتاه قط مثله، إنما طلبت نفسه التي بين جنبيه، فأجبت بما بلغك لأسهل الأمر عليه، ثم سألني فأخبرته، واستشارني فأشرت عليه، وها هي ذه قد جئتك بها؛ قال: أدخلها ويلك! قال:

فأدخلتها عليه، وعنده مسلمة ابنه غلام ما رأيت مثله ولا أجمل منه حين اخضر شاربه، فلما جلست وكلها أعجب بكلامها، فقال: لله أبوك! أمسكك لنفسي أحب إليك، أم أهبك لهذا الغلام؟ فإنه ابن أمير المؤمنين؛ قالت: يا أمير المؤمنين، لست لك بحقيقة، وعسى أن يكون هذا الغلام لي وجها-؛ قال: فقام من مكانه ما راجعها؛ فدخل وأقبل عليها مسلمة، يالكاع، أعلى أمير المؤمنين تختارين؟ قالت: يا عدو نفسه، إنما تلومني أن اخترتك! لعمر الله، لقد قال: رأي من اختارتك. قال: فضيقت والله مجلسه؛ واطلع علينا عبد الملك، قد ادهن بدهن وارى الشيب، وعليه حلة تتلألأ كأنها الذهب، بيده مخصرة يخطر

بها، فجلس مجلسه على سريره، ثم قال: إيها! لله أبوك! أمسكك لنفسي أحب لك، أم أهبك لهذا الغلام؟ قالت: ومن أنت أصلحك الله؟ قال لها الخصي: هذا أمير المؤمنين؛ قالت: لست مختارة على أمير المؤمنين أحدا-؛ قال: فأين قولك آنفا-؟ قالت: رأيت شيخا- كبيرا-، وأرى أمير المؤمنين أشب الناس وأجملهم، ولست مختارة عليه أحدا-، قال: دونكها يا مسلمة. دخلتها عليه، وعنده مسلمة ابنه غلام ما رأيت مثله ولا أجمل منه حين اخضر شاربه، فلما جلست وكلها أعجب بكلامها، فقال: لله أبوك! أمسكك لنفسي أحب إليك، أم أهبك لهذا الغلام؟ فإنه ابن أمير المؤمنين؛ قالت: يا أمير المؤمنين، لست لك بحقيقة، وعسى أن يكون هذا الغلام لي وجها-؛ قال: فقام من مكانه ما راجعها؛ فدخل وأقبل عليها مسلمة، يالكاع، أعلى أمير المؤمنين تختارين؟ قالت: يا عدو نفسه، إنما تلومني أن اخترتك! لعمر الله، لقد قال: رأي من اختارتك. قال: فضيقت والله مجلسه؛ واطلع علينا عبد الملك، قد ادهن بدهن وارى الشيب، وعليه حلة تتلألأ كأنها الذهب، بيده مخصرة يخطر بها، فجلس مجلسه على سريره، ثم قال: إيها! لله أبوك! أمسكك لنفسي أحب لك، أم أهبك لهذا الغلام؟ قالت: ومن أنت أصلحك الله؟ قال لها الخصي: هذا أمير المؤمنين؛ قالت: لست مختارة على أمير المؤمنين أحدا-؛ قال: فأين قولك آنفا-؟ قالت: رأيت شيخا- كبيرا-، وأرى أمير المؤمنين أشب الناس وأجملهم، ولست مختارة عليه أحدا- ، قال: دونكها يا مسلمة.

قال بديح: فنشرت عليه الكسوة والدنانير التي معي، وأريته الجواري والطيب؛ قال: عافى الله ابن جعفر، أخشي أن لا يكون لها عندنا نفقة وطيب وكسوة؟ فقلت: بلى، ولكن أحب أن يكون معها ما تكتفي به حتى تستأنس. قال: فقبضها مسلمة. فلم تلبث عنده إلا يسيرا-

حتى هلكت. قال بديح: فوالله الذي ذهب بنفس مسلمة، ما جلست معه مجلسا-، ولا وقفت موقفا- أنازعه فيه الحديث إلا قال: أبغني مثل فلانة، فأقول: أبغني مثل ابن جعفر.

قال: فقلت لبديح: ويلك! فما أجازه به؟ قال: قال: حين دفع إليه حاجته ودينه، لأجيزنك جائزة، لو نشر لي مروان من قبره ما زدته عليها، فأمر له بمائة ألف، وأيم الله إني لا أحسبه أنفق في هديته ومسيره ذلك وجاريته التي كانت عدل نفسه مائتي ألف [1].

وفود الشعبي على عبد الملك بن مروان:

كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف: أن ابعث رجلا- يصلح للدين وللدنيا، أتخذه سميرا- وجليسا- وخليا-؛ فقال الحجاج: ما له إلا عامر الشعبي، وبعث به إليه. فلما دخل عليه وجده قد كبا مهتما-، فقال: ما بال أمير المؤمنين؟ قال: ذكرت قول زهير:

كأني وقد جاوزت تسعين حجة ... خلعت بها عني عذار لجامي
رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى ... فكيف بمن يرمى وليس برامي
فلو أنني أرمى بنبل رأيتها ... ولكنني أرمى بغير سهام
على الراحتين تارة وعلى العصا ... أنوء ثلاثا- بعدهن قيامي

قال له الشعبي: ليس كذلك يا أمير المؤمنين، ولكن كما قال لبيد بن ربيعة وقد بلغ سبعين حجة:

كأني وقد جاوزت سبعين حجة ... خلصت بها عن منكبي ردائيا-

(1) العقد الفريد، 1 /114.

ولما بلغ سبعا- وسبعين سنة قال:

بانت تشكي إلي النفس موهنة ... وقد حملتك سبعا- بعد سبعينا-
فإن تزادي ثلاثا- تبلغي أملا- ... وفي الثلاث وفاء للثمانينا-

ولما بلغ تسعين سنة قال:

وقد سئمت من الحياة وطولها ... وسؤال هذا الناس كيف لبيد

ولما بلغ عشرا- ومائة قال:

أليس ورائي إن تراخت منيتي ... لزوم العصا تحنى عليها الأصابع
أخبر أخبار القرون التي خلت ... أنوء كأني كلما قمت راكع

ولما بلغ ثلاثين ومائة وحضرته الوفاة قال:

تمنى ابنتاي أن يعيش أبوهما ... وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر
فقوما فقولا بالذي تعلمانه ... ولا تخمشا وجها- ولا تحلقا شعر
وقولا هو المرء الذي لا أضاع ولا خان الخليل ولا صديقه ... غدر
إلى سنة ثم السلام عليكما ... ومن يبك حولا- كاملا- فقد اعتذر

قال الشعبي: فلقد رأيت السرور في وجه عبد الملك طمعا- أن يعيشها[1].

وفود الحجاج بإبراهيم بن محمد بن طلحة على عبد الملك بن مروان:

قال عمران بن عبد العزيز: لما ولي الحجاج بن يوسف الحرمين بعد قتله ابن الزبير استخلص إبراهيم بن محمد بن طلحة فقربه وعظم

(1) العقد الفريد، 1 /115.

منزلته، فلم تزل حاله عنده حتى خرج إلى عبد الملك بن مروان، فخرج معه معادلا-، لا يقصر له في بر ولا إعظام، حتى حضر به عبد الملك، فلما دخل عليه لم يبدأ بشيء بعد السلام إلا أن قال له: قدمت عليك أمير المؤمنين برجل الحجاز، لم أدع له بها نظيرا- في الفضل والأدب والمروءة وحسن المذهب، مع قرابة الرحم ووجوب الحق وعظم قد الأبوة وما بلوت منه في الطاعة والنصيحة وحسن الموازرة، وهو إبراهيم بن محمد بن طلحة، وقد أحضرته بابك ليسهل عليه إذنك، وتعرف له ما عرفتك؛ فقال: أذكرتنا رحما- قريبة وحقا- واجبا-، يا غلام، ائذن لإبراهيم بن محمد بن طلحة، فلما دخل عليه أدناه عبد الملك حتى أجلسه على فراشه، ثم قال له: يا بن طلحة، إن أبا محمد ذكرنا ما لم نزل نعرفك به في الفضل والأدب والمروءة وحسن المذهب، مع قرابة الرحم ووجوب الحق وعظم قدر الأبوة، وما بلاه منك في الطاعة والنصيحة وحسن الوازرة، فلا تدعن حاجة عن خاصة نفسك وعامتك إلا ذكرتها؛ فقال: يا أمير المؤمنين، إن أول الحوائج وأحق ما قدم بين يدي الأمور ما كان لله فيه رضا، ولحق نبيه صلى الله عليه وسلم أداء، ولك فيه ولجماعة المسلمين نصيحة، وعندي نصيحة لا أجد بدا- من ذكرها، ولا أقدر على ذلك إلا وأنا خال، فأخلني يا أمير المؤمنين ترد عليك نصيحتي؛ قال: دون أبي محمد؟ قال: نعم، دون أبي محمد. قال عبد الملك للحجاج: قم. فلما خطرف الستر أقبل علي، فقال: يا بن طلحة، قل نصيحتك؛ فقال: تالله يا أمير المؤمنين، لقد عمدت إلى الحجاج في تغطرسه، وتعجرفه، وبعده من الحق، وقربه من الباطل، فوليته الحرمين، وهما ما هما وبهما ما بهما من المهاجرين والأنصار والموالي الأخيار يطؤهم بطغام أهل الشام ورعاع لا روية لهم في إقامة حق ولا في إزاحة

باطل، ويسومهم الخسف ويحكم فيهم بغير السنة، بعد الذي كان من سفك دمائهم، وما انتهك من حرمهم، ثم ظننت أن ذلك فيما بينك وبين الله زاهق، وفيما بينك وبين نبيك غدا- إذا جاثاك للخصومة بين يدي الله في أمته، أما والله لا تنجو هنالك إلا بحجة، فاربع على نفسك أودع. فقال له عبد الملك: كذبت ومنت وظن بك الحجاج ما لم يجده فيك، وقد يظن الخير بغير أهله، قم فأنت الكاذب المائن. قال: فقمت وما أعرف طريقا-، فلما خطرف الستر لحقني لاحق، فقال: احبسوا هذا، وقال للحجاج: ادخل، فدخل، فمكث مليا- من النهار لا أشك أنهما في أمري، ثم خرج الآذن، فقال: ادخل يا بن طلحة، فلما كشف لي الستر لقيني الحجاج، وهو خارج وأنا داخل، فاعتنقني وقبل ما بين عيني، وقال: أما إذا جزى الله المتواخيين خيرا- تواصلهم فجزاك الله عني أفضل الجزاء، فوالله لئن سلمت لك لأرفعن ناظرك، ولأعلين كعبك، ولأتبعن الرجال غبار قدميك؛ قال: قلت: يهزأ بي وحق الكعبة. فلما وصلت إلى عبد الملك أدناني حتى أدناني عن مجلسي الأول، ثم قال: يا بن طلحة، لعل أحدا- شاركك في نصيحتك هذه؟ قلت: والله يا أمير المؤمنين، ما أعلم أحدا- أنصع عندي يدا- ولا أعظم معروفا- من الحجاج، ولو كنت محابيا- أحدا- لغرض دنيا لحابيته، ولكني آثرت الله ورسوله وآثرتك والمؤمنين عليه؛ قال: قد علمت أنك لم ترد الدنيا، ولو أردتها لكانت لك في الحجاج، ولكن أردت الله والدار الآخرة، وقد عزلته عن الحرمين لما كرهت من ولايته عليهما، وأعلمته أنك استنزلتني له عنهما استقلالا- لهما، ووليته العراقين، وما هنالك من الأمور التي لا يدحضها إلا مثله، وأعلمته أنك استدعيتني إلى ولايته عليهما استزادة له، لألزمه بذلك من حقك ما يؤدي إليك عني أجر نصيحتك، فاخرج معه فإنك غير ذام لصحبته. فخرجت مع

الحجاج وأكرمني أضعاف إكرامه [1].

وفود جرير على عبد الملك بن مروان:

لما مدح جرير بن الخطفي الحجاج بن يوسف بشعره الذي يقول فيه:

من سد مطلع النفاق عليكم ... أم من يصول كصولة الحجاج
أم من يغار على النساء حفيظة ... إذ لا يثقن بغيرة الأزواج

وقوله:

دعا الحجاج مثل دعاء نوح ... فأسمع ذا المعارج فاستجابا

قال له الحجاج: إن الطاقة تعجز عن المكافأة، ولكني موفدك على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، فسر إليه بكتابي هذا. فسار إليه، ثم استأذنه في الإنشاد، فأذن له، فقال:

أتصحو بل فؤادك غير صاحٍ

قال له عبد الملك: بل فؤادك. فلما انتهى إلى قوله:

تعزت أم حزرة ثم قالت ... رأيت الواردين ذوي امتياح
ثقي بالله ليس له شريك ... ومن عند الخليفة بالنجاح
سأشكر إن رددت إلي ريشي ... وأثبت القوادم في جناحي
ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح

(1) العقد الفريد، 1 /117.

ارتاح عبد الملك وكان متكئا، فاستوى جالسا، ثم قال: من مدحنا منكم فليمدحنا بمثل هذا أو ليسكت؛ ثم قال له: يا جرير، أترى أم حزرة ترويها مائة ناقة من نعم كلب؟ قال: إذا لم تروها يا أمير المؤمنين فلا أرواها الله. فأمر له بمائة ناقة من نعم كلب كلها سود الحدقة؛ فقال: يا أمير المؤمنين، إنها أباق ونحن مشايخ، وليس بأحدنا فضل عن راحلته؛ فلو أمرت بالرعاء؛ فأمر له بثمانية من الرعاء. وكانت بين يدي عبد الملك صحاف من فضة يقرعها بقضيب في يده؛ فقال له جرير: والمحلب يا أمير المؤمنين، وأشار إلى صحفة منها، فنبذها إليه بالقضيب وقال: خذها لا نفعتك. ففي ذلك يقول جرير:

أعطوا هنيدة يحدوها ثمانية :: ما في عطائهم من ولا شرف[1]

من أنت؟

قال ابن شهاب الزهري: دخلت على عبد الملك بن مروان في رجال من أهل المدينة، فرآني أحدثهم سنا، فقال لي: من أنت؟ فانتسبت له؛ فقال: لقد كان أبوك وعمك نعاقين في فتنة ابن الأشعث؛ فقلت: يا أمير المؤمنين، إن مثلك إذا عفا لم يعدد، وإذا صفح لم يثرب. فأعجبه ذلك، وقال: أين نشأت؟ قلت: بالمدينة؛ قال: عند من طلبت؟ قلت: سعيد بن المسيب؛ وسليمان بن يسار، وقبيصة بن ذؤيب؛ قال: فأين أنت من عروة بن الزبير؟ فإنه بحر لا تكدره الدلاء. فلما انصرفت من عنده لم أبارح عروة بن الزبير حتى مات.

أبالحرمان يهددني!:

قال العتبي: أمر عبد الملك بن مروان بقطع أرزاق آل أبي سفيان وجوائزهم لموجودة وجدها على خالد بن يزيد بن معاوية فدخل عليه

(1) العقد الفريد، 1 /118.

عمر بن عتبة، فقال: يا أمير المؤمنين، إن أدنى حقك معتب، وبعضه فادح لنا، ولنا من حقك علينا حق عليك، بإكرام سلفنا لسلفك، فانظر إلينا بالعين التي نظروا بها إليهم، وضعنا بحيث وضعتنا الرحم منك؛ قال: عبد الملك: إنما ما يستحق عطيتي من استعطاها، فأما من ظن أنه يكتفي بنفسه، فسنكله إلى نفسه، ثم أمر له بعطيته.

فبلغ ذلك خالدا- فقال: أبالحرمان يهددني! يد الله فوق يده باسطة، وعطاء الله دونه مبذول، فأما عمرو فقد أعطى من نفسه أكثر مما أخذ لها.

مذ متى اعتللت؟

وجد عبد الملك بن مروان على رجل فجفاه وأطرحه، ثم دعا به ليسأله عن شيء، فرآه شاحبا- ناحلا-، فقال له: مذ متى اعتللت؟ فقال: ما مسني سقم، ولكني جفوت نفسي إذ جفاني الأمير، وآليت أن لا أرضى عنها حتى يرضى عني أمير المؤمنين. فأعاده إلى حسن رأيه.

اجعله من بعض ذنوبك التي تستغفر الله منها:

أتي عبد الملك بن مروان بأعرابي سرق، فأمر بقطع يده فأنشأ يقول:

يدي يا أمير المؤمنين أعيذها ... بعفوك أن تلقى مكانا- يشينها
ولا خير في الدنيا وكانت حبيبة ... إذا ما شمالي فارقتها يمينها

فأبى إلا قطعه؛ فقالت أمه: يا أمير المؤمنين، واحدي وكاسبي؛ قال: بئس الكاسب كان لك، وهذا حد من حدود الله؛ قال: يا أمير المؤمنين، اجعله من بعض ذنوبك التي تستغفر الله منها، فعفا عنه.

أنت رأيت ذلك؟

قال أبو الحسن المدائني: كان العباس بن سهل والي المدينة لعبد الله بن الزبير، فلما بايع الناس عبد الملك بن مروان، ولى عثمان بن حيان المري، وأمره بالغلظة على أهل الظنة، فعرض يوما- بذكر الفتنة وأهلها، فقال له قائل: هذا العباس بن سهل على ما فيه، كان مع ابن الزبير وعمل له؛ فقال عثمان بن حيان: ويلي عليه، والله لأقتلنه؛ قال العباس: فبلغني ذلك، فتغيبت حتى أضر بي التغيب، فأتيت ناسا- من جلسائه فقلت لهم: ما لي أخاف وقد أمنني عبد الملك بن مروان؟ فقالوا: والله ما يذكرك إلا تغيظ عليك، وقلما كلم على طعامه في ذنب إلا انبسط، فلو تنكرت وحضرت عشاءه وكلمته. قال: ففعلت، وقلت على طعامه وقد أتي بجفنة ضخمة ذات ثريد ولحم: والله لكأني أنظر إلى جفنة حيان بن معبد والناس يتكاوسون عليها، وهو يطوف في حاشيته، يتفقد مصالحها، يسحب أردية الخز، حتى إن الحسك ليتعلق به فما يميطه، ثم يؤتى بجفنة تهادى بين أربعة، ما يستقلون بها إلا بمشقة وعناء، وهذا بعد ما يفرغ الناس من الطعام ويتنحون عنه، فيأتي الحاضر من أهله بالدنو والطارئ من أشراف قومه، وما بأكثرهم من حاجة إلى الطعام، وما هو إلا الفخر بالدنو من مائدته والمشاركة ليده؛ قال: هيه، أنت رأيت ذلك؟ قلت: أجل والله؛ قال لي: ومن أنت؟ قلت: وأنا آمن؟ قال: نعم؛ قلت: العباس بن سهل بن سعد الأنصاري، قال: مرحبا- وأهلا-، أهل الشرف والحق. قال: فلقد رأيتني بعد ذلك وما بالمدينة رجل أوجه مني عنده. فقيل له بعد ذلك: أنت رأيت ونزلنا ذلك الماء وغشينا وعليه عباءة ذكوانية، فلقد جعلنا نذوده عن رحلنا مخافة أن يسرقه.

ما خرج هذا إلا من كلام النبوة:

وكتب ملك الروم إلى عبد الملك بن مروان: أكلت لحم الجمل الذي هرب عليه أبوك من المدينة لأغزينك جنودا- مائة ألف ومائة ألف. فكتب عبد الملك إلى الحجاج أن يبعث إلى عبد الله بن الحسن ويتوعده ويكتب إليه بما يقول، ففعل، فقال عبد الله بن الحسن: إن لله عز وجل لوحا- محفوظا-، يلحظه كل يوم ثلثمائة لحظة، ليس منها لحظة إلا يحيي فيها ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء، وإني لأرجو أن يكفينيك منها بلحظة واحدة. فكتب به الحجاج إلى عبد الملك بن مروان، وكتب به عبد الملك إلى ملك الروم، فلما قرأه قال: ما خرج هذا إلا من كلام النبوة.

أَنىَ لك هذا؟

ودخل رجلٌ علىِ عبد الملك بن مَرْوان، وكان لا يَسأَله عن شيء إلاّ وَجد عنده منه عِلما-، فقال لهُ: أَنىَ لك هذا؟ فقال: لم أَمْنع قَطّ يا أَميرَ المؤمنين علما- أفيده، ولم أَحتقر علما- أَستفيده، وكنتُ إذَا لَقيت الرَّجُلَ أَخذتُ منه وأَعطيتُهُ.

ابن من أنت؟

وتكلم رجل عند عبد الملك بن مروان بكلام ذهب فيه كل مذهب، فأعجب عبد الملك ما سمع من كلامه، فقال له: ابن من أنت؟ قال: أنا ابن نفسي يا أمير المؤمنين التي بها توصلت إليك، قال: صدقت.

ما في إبليس شرٌ من هذا:

وقال عبدُ الملك بن مَرْوان للحجاح: إنه ليس منَ أحدٍ إلا وهو يَعرف عَيب نفسه، فصفْ لي عيوبك. قال: أعفِنى يا أمير المؤمنين؛ قال: لستُ أفعل؛ قال: أنا لَجُوج لَدُود حَقُود حَسُود؛ قال: ما في إبليس

شرٌ من هذا.

وأيُّ الملوك أكمل؟

دخل مُسلم بن يَزِيد بن وَهْب على عبد الملك بن مَرْوَان، فقال له عبدُ الملك: أيُّ زمان أدركتَ أفضَل، وأيُّ الملوك أكمل؟ قال: أمّا المُلوك فلم أَرَ إلا حامدا- أو ذامّ-ا، وأما الزمان فيَرْفع أقواما-، وكلّهم يَذُم زمانَه لأنه يُبْلِي جديدَهم، ويُفرَق عديدهم، ويهْرِم صغيرَهم؛ ويهلك كَبيرَهم.

وقال الشاعر:

أيا دهرُ إن كنتَ عاديتَنا : فَهِا قد صَنَعتَ بِنا ما كفَاكَا
جَعلت الشرَارَ علينا خِيارا- :: وولَيتنا بعد وَجْهٍ قفَاكا

وقال آخر:

إذا كان الزمانُ زمانَ تَيْمٍ : وعكْلٍ فالسلامُ على الزّمانِ
زمانٍ صارَ فيه الصدرُ عَجْزاً :: وصارَ الزُّجّ قُدّامَ السّنانَ
لعلّ زمانَنا سَيعود يوم-ا : كما عاد الزمانُ على بِطان

أما وجدتْ لك أمُك اسما- إلا عطاء؟

دخل عَطاء المُضْحك على عبد الملك بن مَرْوان، فقال له: أما وجدتْ لك أمُك اسما- إلا عطاء؟ قال: لقد استكثرت- من ذلك ما استكثرتَه يا أميرَ المؤمنين، ألا سَمَتني باسم المُباركة، صلوات الله عليها، مَرْيم [1].

(1) العقد الفريد، 1 /474.

زُبيريّ!:

دَخل رجل من قَيْس على عبد الملك بن مَرْوان فقال: زُبيريّ! والله لا يحبك قلبي أبدا-؛ قال: يا أميرَ المُؤمنين، إنما يَجْزع من فَقْد الحُبّ النِّساء، ولكنْ عَدْلا- وإنْصافا-. وقال عمر بن الخطّاب لأبي مَريم الحنفيّ، قاتل زيد بن الخطّاب: والله لا يُحبك قلبي أبدا- حتى تُحِبّ الأرضُ الدمَ؛ قال: يا أمير المؤمنين، فهل تَمْنعني لذلك حقّا؟ قال: لا؛ قال: فَحَسبي [1].

أتعرفني با أمير المؤمنين؟!:

وروت الرواة أن الحجاج لما أخذ رأس ابن الأشعث وجه به إلى عبد الملك بن مروان مع عرار بن عمرو بن شأس الأسدي وكان أسود دميما- فلما ورد به عليه جعل عبد الملك لا يسأل عن شيء من أمر الوقعة إلا أنبأه به عرار، في أفصح لفظ، وأشبع قول، وأجزأ اختصار، فشفاه من الخبر، وملأ أذنه صوابا- وعبد الملك لا يعرفه، وقد اقتحمته عينه حيث رآه فقال متمثلا-:

آرادت عرارا- بالهوان ومن :: لعمري عرارا- بالهوان فقد
يرد : ظلم
وإن عرارا- إن يكن غير :: فإني أحب الجون ذا المنكب
واضح : العمم

فقال له عرار: أتعرفني با أمير المؤمنين قال: لا، قال: فأنا والله عرار فزاده في سروره، وأضعف له الجائزة [2].

(1) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، 1 / 6، 10، 12، 19، 23، 37، 71، 90، 118، 136، 138، 274، 143، 144، 155، 161، 183، 194، 199، 229، 240، 241، 274، 248، 254، 271، 305، 336.
(2) الكامل في اللغة و الأدب، 1 /217.

لقلنا: صدقت!.

ويروى أن عبد الله بن يزيد بن معاوية أتى أخاه خالدا- فقال: يا أخي، لقد هممت اليوم أن أفتك بالوليد بن عبد الملك فقال له خالد: بئس والله ما هممت به في ابن أمير المؤمنين، وولي عهد المسلمين فقال: إن خيلي مرت به فعبث بها وأصغرني، فقال له خالد: أنا أكفيك، فدخل خالد على عبد الملك والوليد عنده، فقال: يا أمير المؤمنين، الوليد ابن أمير المؤمنين، وولي عهد المسلمين، فقال: إن خيلي مرت به فعبث بها وأصغرني، فقال له خالد: أنا أكفيك، فدخل خالد على عبد الملك والوليد عنده، فقال يا أمير المؤمنين، الوليد ابن أمير المؤمنين، وولي عهد المسلمين، مرت به خيل ابن عمه عبد الله بن يزيد فعبث بها، وأصغره، وعبد الملك مطرق، فرفع رأسه، فقال: {ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ ئې ئې ئېٍ ئىئىئدىىيِ} [النمل: ٣٤]، فقال خالد: {ئوئۇ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ ئې ئې ئېئى ئى ئد ى ى} [الإسراء: ١٦]، فقال عبد الملك: أفـــي عبد الله تكلمني والله لقد دخل علي فما أقام لسانه لحنا- فقال له خالد: أفعلى الوليد تعول فقال عبد الملك: إن كان الوليد يلحن فإن أخاه سليمان، فقال له خالد: وإن كان عبد الله يلحن فإن أخاه خالد، فقال له الوليد: اسكت يا خالد، فوالله ما تعد في العير ولا في النفير، فقال خالد: اسمع يا أمير المؤمنين، ثم أقبل عليه وقال: ويحك فمن العير والنفيرغيري؟ جدي أبو سفيان صاحب العير، وجدي عتبة بن ربيعة صاحب النفير، ولكن لو قلت: غنيمات، وحبيلات، والطائف ورحم الله عثمان لقلنا: صدقت! [1].

(1) الكامل في اللغة و الأدب، 1 /264.

فيا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما-!:

ويروى أن الحجاج كتب إلى عبد الملك بن مروان: " وبلغني أن أمير المؤمنين عطس عطسة فشمّته قومٌ، فقال: يغفر الله لنا ولكم، فيا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما- "![1].

كثير والأخطل عند عبد الملك بن مروان:

وحدث أن كثيرا- دخل على عبد الملك بن مروان وعنده الأخطل، فأنشده التفت عبد الملك إلى الأخطل، فقال: كيف ترى؟ فقال: حجازي مجوع مقرور[2]، دعني أضغمه يا أمير المؤمنين، فقال كثير: من هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال له: هذا الأخطل، فقال له كثير: مهلا-، فهلا ضغمت الذي يقول:

لا تطلبن خؤولة في تغلب :: فالزنج أكرمُ منهم أخوالا-
والتغلبي إذا تنحنح للقرى :: حك استه وتمثل الأمثالا

فسكت الأخطل فما أجابه بحرفٍ [3].

نصيب عند عبد الملك بن مروان:

وحدثت أن نصيبا- أتى عبد الملك فأنشده، فاستحسن عبد الملك شعره وسر به، فوصله، ثم دعا بالغداء فطعم معه، فقال له بعد الملك: يا نصيب، هل لك فيما يتنادم عليه؟ فقال: يا أمير المؤمنين، تأملني، قال: قد أراك، فقال: يا أمير المؤمنين، جلدي أسود، وخلقي مشوه، ووجهي قبيح، ولست في منصب، وإنما بلغ بي مجالستك ومؤاكلتك عقلي وأنا أكره يا أمير المؤمنين أن أدخل عليه ما ينقص. فأعجبه

(1) الكامل في اللغة و الأدب، 83/2.
(2) مقرور: أصابه القر، وهو البرد.
(3) الكامل في اللغة و الأدب، 2 /117.

كلامه فأعفاه [1].

شمعل التغلبي حين ضربه عبد الملك بن مروان:

قال: كلم شمعل التغلبي عبد الملك كلاما- لم يرضه، فرماه عبد الملك بالجرز1 فخدش وهشم، فقال شمعل:

أمن جذبه بالرجل مني :: عداتي، فلا عيب علي ولا سخر
تباشرت :: لكالدهر، لا عار بما فعل الدهر! [2]
فإن أمير المؤمنين وسيفه :

عبد الملك بن مروان ورجل من الخوارج:

وذكروا أن عبد الملك بن مروان أتي برجل منهم فبحثه فرأى منه ما شاء فهما- ثم بحثه، فرأى ما شاء إربا- ودهيا-[3]، فرغب فيه، فاستدعاه إلى الرجوع عن مذهبه، فرآه مستبصرا- محققا-، فزاده في الإستدعاء فقال له: لتغنك الأولى عن الثانية، وقد قلت فسمعت، فاسمع أقل، قال له: قل. فجعل يبسط له من قول الخوارج ويزين له مذهبهم بلسان طلق وألفاظ بينة ومعان قريبة، فقال عبد الملك بعد ذلك على معرفته: لقد كان يوقع في خاطري أن الجنة خلقت لهم، وأنا أولى بالجهاد منهم. ثم رجعت إلى ما ثبت الله علي من الحجة وقرر في قلبي من الحق. فقلت له: لله الآخرة والدنيا، وقد سلطنا الله في الدنيا، ومكن لنا فيها، وأراك لست تجيب بالقبول، والله لأقتلنك إن لم تطع.

فبينما في ذلك إذ دخل علي بابني مروان.

قال أبو العباس: كان مروان أخا يزيد لأمه، أمهما عاتكة بنت يزيد بن معاوية، وكان أبيا- عزيز النفس، فدخل به في هذا الوقت

(1) الكامل في اللغة و الأدب، 2 /118.
(2) الكامل في اللغة و الأدب، 2 /119.
(3) الأرب: البصر بالأمور، والدهى، مصدر دهى، كرضي، إذ كان صاحبه عاقلا مجربا.

على عبد الملك باكيا- لضرب المؤدب إياه، فشق ذلك على عبد الملك، فأقبل الخارجي، فقال له: دعه يبكي؛ فإنه أرحب لشدقه، وأصح لدماغه، وأذهب لصوته، وأحرى ألا تأبى عليه عينه إذا حضرته طاعة الله، فاستدعى عبرتها. فأعجب ذلك من قوله عبد الملك، فقال معجبا-: أما يشغلك ما أنت فيه وبعرضه عن هذا! فقال ما ينبغي أن يشغل المؤمن عن قول الحق شيء، فأمر عبد الملك بحبسه، وصفح عن قتله، وقال بعد يعتذر إليه: لولا أن تفسد بألفاظك أكثر رعيتي ما حبستك.

ثم قال عبد الملك: من شككني ووهمني حتى مالت بي عصمة الله فغير بعيد أن يستهوي من بعدي. وكان عبد الملك من الرأي والعلم بموضع [1].

صديق عبد الملك بن مروان:

عن حماد بن سلمة: أن عبد الملك كان له صديق، وكان من أهل الكتاب، يقال له يوسف، فأسلم، فقال له عبد الملك يوما-، وهو في عنفوان نسكه، وقد مضت جيوش يزيد بن معاوية مع مسلم بن عقبة المري، من مرة غطفان، تريد المدينة ألا ترى خيل عدو الله قاصدة لحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال له يوسف: جيشك والله إلى حرم رسول الله أعظم من جيشه، فنفض عبد الملك ثوبه ثم قال: معاذ الله! قال له يوسف: ما قلت شاكا- ولا مرتابا-، وإني لأجدك بجميع أوصافك. قال له عبد الملك: ثم ماذا؟ قال: ثم يتداولها رهطك. قال: إلى متى؟ قال: إلى أن تخرج الرايات السود من خراسان [2].

(1) الكامل في اللغة و الأدب، 3 /170.
(2) محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (المتوفى: 285هـ)، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق

هكذا العرب تقتتل بينها:

قيل: ولما تشاغل عبد الملك بن مروان بمقاتلة مصعب بن الزبير اجتمع وجوه الروم إلى ملكهم وقالوا له: قد أمكنتك الفرصة من العرب فقد تشاغل بعضهم ببعض ووقع بأسهم بينهم فالرأي أن تغزوهم في بلادهم فإنك تذلهم وتنال حاجتك منهم، فنهاهم عن ذلك فأبوا عليه إلا أن يفعل، فلما رأى ذلك دعا بكلبين فأرّش بينهما فاقتتلا قتالا- شديدا- ثم دعا بثعلب فخلاّه بينهما، فلما رأى الكلبان الثعلب تركا ما كانا فيه وأقبلا على الثعلب حتى قتلاه، فقال ملك الروم: هكذا العرب تقتتل بينها فإذا رأونا وهم مجتمعون تركوا ذلك وأقبلوا علينا، فعرفوا صدقه ورجعوا عما كانوا عليه.

أرسول أمير المؤمنين أنت؟

قال: وكتب عبد الملك بن مروان إلى عمر بن محمد صاحب البلقاء أن اخطب عليّ الشقراء بنت شبيب بن عوانة الطائية وهو يومئذ في بادية له ومعه عدة من أصحابه. فأرسل إليه عمر: إن أمير المؤمنين كتب إليّ أن أخطب عليه الشقراء ابنتك فاحضر فارسل إليه. فقال: ما لنا إليكم حاجة، فإن كانت لأمير المؤمنين إلينا حاجة فليأت أو يرسل رسولا-. فقال عمر: سيروا بنا إليه. فسار في جماعة من وجوه البلقاء. قال: فدفعنا إلى أعرابي بفناء خيمته فسلمنا فرد السلام، وتكلم عمر فقال الأعرابي: أرسول أمير المؤمنين أنت؟ قال: نعم، قال: فإنا قد زوجناه على صداق نسائنا مائة من الإبل وما يتبعها من الثياب والخدم. فقلت: نعم. ثم جاءنا بثلاث جفان من كسور خبز ولبن فأكلنا ثم انصرفنا، فكتبت إلى عبد الملك بن مروان فأرسل إليه بمائة من

محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي - القاهرة، الطبعة الثالثة 1417 هـ - 1997 م، 1 / 110.

الإبل وعشرة آلاف درهم وما يتبع ذلك من الطيب والخدم والأثاث. فجهزها ثم حملها إلى عبد الملك وما معها من ذلك شيء إلا البعير الذي ركبته ومعها نسوة من بنات عمها. فلما وافت عبد الملك أمر فأُدخلت إلى دار فأقامت أياما- ثم إن عبد الملك بنى بها فكان كثيرا- ما يقول: ما رأيت مثل هذه الأعرابية ظرفا- وخلقا- ومنطقا-.

فاشتد ذلك على عاتكة بنت يزيد بن معاوية فأرسلت إلى روح بن زنباع، وكان من أخص الناس بعبد الملك، فقالت: يا أبا زرعة قد علمت رأي أمير المؤمنين معاوية كان فيك ورأي يزيد من بعده وأن أمير المؤمنين قد أعجبه أمر هذه الأعرابية وغلبت على قلبه فشأنك في إفساد ذلك عنده. قال: نعم ونعمة عينٍ. ثم خلا بعبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين كيف ترى الأعرابية؟ قال: قد جمعت ما جمع النساء الحاضرة والبادية. قال: يا أمير المؤمنين إنك من الأعرابية كما قال الأول:

وإذا تسرك من تميم خلةٌ ⁝ فلما يسوءك من تميم أكثر

فقال له: لا تقل ذلك، قال: كأنك بها قد حالت إلى غير ما هي عليه.

فكثر ذلك منه. ثم إن عبد الملك دخل عليها فقال: يا شقراء أعلمت أن روحا- قال لي كذا وكذا؟ قالت: ولم ذاك وحال عشيرتي وعشيرته كما تعلم؟ قال: هو علي ما قلت لك وإن أحببت أسمعتك ذلك منه! فقالت: قد أحببت.

فأمرها أن تجلس خلف الستر وأرسل إلى روح، فلما دخل عليه قال: هيه يا أبا زرعة والله لقد وقع كلامك مني موقعا-! قال: نعم يا أمير المؤمنين إن الأعرابية تنتكث كانتكاث الحبل ثم لا تدري ما أنت

عليه منها. فعجّلت ورفعت الستر وقالت: أنت فلا حياك الله ولا وصل رحمك قد كان يبلغني هذا عنك فما كنت أصدق! فوثب روح وقال: يا هذه إن هذا أرسل إليّ فأعلمني أنك خلف الستر وعزم عليّ أن أتكلم بهذا فلم أجد بدا- من أبرّ عزيمته، وأما أنت فلا يسوءك الله! قالت: صدق والله ابن عمي وأنت الذي حملته على ما قال. فقال عبد الملك: ويلك يا شقراء ألا تقبلي منه! قالت: هو عندي أصدق منك. وجعل روح يقول وهو مولٍّ: هو والله الحق كما أقول. فخرج ووقع الكلام بينهما [1].

وله علي ما يتمناه:

ومن حكايات الفصحاء ونوادر البلغاء ما حكي أن عبد الملك بن مروان جلس يوما وعنده جماعة من خواصه وأهل مسامرته فقال أيكم يأتيني بحروف المعجم في بدنه وله علي ما يتمناه فقام إليه سويد بن غفلة فقال أنا لها يا أمير المؤمنين قال هات فقال نعم يا أمير المؤمنين أنف بطن ترقوة ثغر جمجمة حلق خد دماغ ذكر رقبة زند ساق شفة صدر ضلع طحال ظهر عين غبب فم قفا كف لسان منخر نغنوغ هامة وجه يد وهذه آخر حروف المعجم والسلام على أمير المؤمنين فقام بعض أصحاب عبد الملك وقال يا أمير المؤمنين أنا أقولها من جسد الإنسان مرتين فضحك عبد الملك وقال لسويد أسمعت ما قال قال أصلح الله الأمير أنا أقولها ثلاثا فقال هات

ولك ما تتمناه فابتدأ يقول انف أسنان أذن بطن بنصر بزة ترقوة تمرة تينة ثغر ثنايا ثدي جمجمة جنب جبهة حلق حنك حاجب خد خنصر خاصرة دبر دماغ دراديرذقن ذكر ذراع رقبة رأس ركبة

(1) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، 1 / 46، 56، 61، 171، 248.

زند زردمة زب فهناك ضحك عبد الملك حتى استلقى على قفاه ساق سرة سبابة شفة شفر شارب صدر صدع صلعة ضلع ضفيرة ضرس طحال طرة طرف ظهر ظفر ظلم عين عنق عاتق غبب غلصمة غنة فم فك فؤاد قلب قفا قدم كف كتف كعب لسان لحية لوح منخر مرفق منكب نغنوغ ناب نن هامة هيئة هيف وجه وجنة ورك يمين يسار يافوخ ثم نهض مسرعا فقبل الأرض بين يدي أمير المؤمنين قال فعندها ضحك عبد الملك وقال والله ما تزيدنا عليها شيئا أعطوه ما يتمناه ثم أجازه وأنعم عليه وبالغ في الإحسان إليه.

أما والله لأودبنكم أدبا غير هذا الأدب:

وحكي عن عبد الملك بن عمير أنه قال لما بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان اضطراب أهل العراق جمع أهل بيته وأولي النجدة من جنده وقال أيها الناس إن العراق كدر ماؤها وكثر غوغاؤها وأملولح عذبها وعظم خطبها وظهر ضرامها وعسر أخماد نيرانها فهل من ممهد لهم بسيف قاطع وذهن حامع وقلب ذكي وأنف حمي فيخمد نيرانها ويردع غيلانها وينصف مظلومها ويداوي الجرح حتى يندمل فتصفو البلاد وتأمن العباد فسكت القوم ولم يتكلم أحد فقام الحجاج وقال يا أمير المؤمنين أنا للعراق قال ومن أنت لله أبوك قال أنا الليث الضمضام والهزبر الهشام أنا الحجاج بن يوسف قال ومن أين قال من ثقيف كهوف الضيوف ومستعمل السيوف قال أجلس لا أم لك فلست هناك ثم قال مالي أرى الرؤوس مطرقة والألسن معتقلة فلم يجبه أحد فقام إليه الحجاج وقال أنا مجندل الفساق ومطفىء نار النفاق قال ومن انت قال أنا قاصم الظلمة ومعدن الحكمة الحجاج بن يوسف معدن العفو والعقوبة آفة الكفر والريبة قال إليك عني وذاك فلست هناك ثم قال من للعراق فسكت القوم وقام الحجاج وقال انا للعراق

فقال إذن أظنك صاحبها والظافر بغنائمها وإن لكل شيء يا ابن يوسف آية وعلامة فما آيتك وما علامتك قال العقوبة والعفو والاقتدار والبسط والازورار والادناء والابعاد والجفاء والبر والتأهب والحزم وخوض غمرات الحروب بجنان غير هيوب فمن جادلني قطعته ومن نازعني قصمته ومن خالفني نزعته ومن دنا مني أكرمته ومن طلب الأمان أعطيته ومن سارع إلى الطاعة بجلته فهذه آيتي وعلامتي وما عليك يا أمير المؤمنين أن تبلوني فان كنت للاعناق قطاعا وللأموال جماعا وللأرواح نزاعا ولك في الأشياء نفاعا وإلا فليستبدل بي أمير المؤمنين فان الناس كثير ولكن من يقوم بهذا الأمر قليل فقال عبد الملك أنت لها فما الذي تحتاج إليه قال قليل من الجند والمال فدعا عبد الملك صاحب جنده فقال هيئ له من الجند شهوته وألزمهم طاعته وحذرهم مخالفته ثم دعا الخازن فأمره بمثل ذلك فخرج الحجاج قاصدا نحو العراق قال عبد الملك بن عمير فبينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة إذا أتانا آت فقال هذا الحجاج قدم أميرا على العراق فتطاولت الأعناق نحوه وأفرجوا له عن صحن المسجد فإذا نحن به يمشي وعليه عمامة حمراء متلثما بها ثم صعد المنبر فلم يتكلم كلمة واحدة ولا نطق بحرف حتى غص المسجد بأهله وأهل الكوفة يومئذ ذوو حالة حسنة وهيئة جميلة فكان الواحد منهم يدخل المسجد ومعه العشرون والثلاثون من أهل بيته ومواليه وأتباعه عليهم الخز والديباج قال وكان في المسجد يومئذ عمير بن صابىء التميمي فلما رأى الحجاج على المنبر قال لصاحب له أسبه لكم قال اكفف حتى نسمع ما يقول فأبى ابن صابئ وقال لعن الله بني أمية حيث يولون ويستعملون مثل هذا على العراق وضيع الله العراق حيث يكون هذا أميرها فوالله لو دام هذا أميرا كما هو ما كان بشيء والحجاج ساكت

ينظر يمينا وشمالا فلما رأى المسجد قد غص بأهله قال هل اجتمعتم فلم يزد عليه أحد شيئا فقال إني لا أعرف قدر اجتماعكم فهل اجتمعتم فقال رجل من القوم قد اجتمعنا أصلح الله الأمير فكشف عن لثامه ونهض قائما فكان أول شيء نطق به أن قال والله إني لأرى رؤوس-ا أينعت وقد حان قطافها وإني لصاحبها واني لأرى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى والله يا أهل العراق إن أمير المؤمنين نثر كنانة بين يديه فعجم عيدانها فوجدني أمرها عودا وأصلبها مكسرا فرماكم بي لأنكم طالما أثرتم الفتنة واضطجعتم في مراقد الضلال والله لأنكلن بكم في البلاد ولأجعلنكم مثلا في كل واد ولأضربنكم ضرب غرائب الابل وإني يا أهل العراق لا أعد إلا وفيت ولا أعزم إلا أمضيت وهذه الزرافات والجماعات وقيل وقال وكان ويكون يا أهل العراق إنما أنتم أهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأتاها وعيد القرى من ربها فاستوثقوا واستقيموا واعملوا ولا تميلوا وتابعوا وبايعوا واجتمعوا واستمعوا فليس منى الإهدار والإكثار إنما هو هذا السيف ثم لا ينسلخ الشتاء من الصيف حتى يذل الله لأمير المؤمنين صعبكم ويقيم له أودكم ثم إني وجدت الصدق مع البر ووجدت البر في الجنة ووجدت الكذب مع الفجور ووجدت الفجور في النار وقد وجهني أمير المؤمنين إليكم وأمرني أن أنفق فيكم وأوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب ابن أبي صفرة وإني أقسم بالله لا أجد رجلا يتخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه يا غلام اقرأ كتاب أمير المؤمنين فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك بن مروان إلى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم فلم يرد أحد شيئا فقال الحجاج اكفف يا غلام ثم أقبل على الناس فقال أيسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون شيئا عليه هذا أدبكم الذي تأدبتم

به أما والله لأؤدبنكم أدبا غير هذا الأدب اقرأ يا غلام فقرأ حتى بلغ قوله سلام عليكم فلم يبق أحد إلا قال وعلى أمير المؤمنين السلام ثم نزل بعدما فرغ من خطبته وقراءته ووضع للناس عطاياهم فجعلوا يأخذونها حتى أتاه شيخ يرعش فقال أيها الأمير إني على الضعف كما ترى ولي ابن هو أقوى مني على الأسفار أفتقبله بديلا مني فقال نقبله أيها الشيخ فلما ولى قال له قائل أتدري من هذا أيها الأمير قال لا قال هذا ابن صابئ الذي يقول:

(هممت ولم أفعل وكدت :: تركت على عثمان تبكي وليتني : حلائله)

ولقد دخل هذا الشيخ على عثمان رضي الله عنه وهو مقتول فوطئ في بطنه فكسر ضلعين من أضلاعه فقال الحجاج ردوه فلما ردوه قال له الحجاج أنت الفاعل بأمير المؤمنين عثمان ما فعلت يوم قتل الدار إن في قتلك أيها الشيخ إصلاحا للمسلمين يا سياف اضرب عنقه فضرب عنقه وكان من أمره بعد ذلك ما عرف وسطر [1].

ومن حكايات الحجاج ما حكي أنه لما أسرف في قتل أسرى دير الجماجم وأعطى الأموال بلغ ذلك أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فشق عليه وكتب إليه أما بعد فقد بلغني عنك أسراف في الدماء وتبذير في العطاء وقد حكمت عليك في الدماء في الخطأ بالدية وفي العمد بالقود وفي الأموال أن تردها إلى مواضعها ثم تعمل فيها برأيي فإنما هو مال الله تعالى ونحن أمناؤه فإن كنت اردت الناس لي فما أغناني عنهم وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم وسيأتيك عني أمران لين وشدة فلا يؤمننك إلا الطاعة ولا يوحشنك إلا المعصية وإذا أعطاك الله عز و جل الظفر فلا تقتلن جانحا ولا أسيرا وكتب في

(1) المستطرف، 1 /116 - 118.

أسفل الكتاب:

::
:
:: وتطلب رضائي بالذي أنا
(إذا أنت لم تترك أمورا : طالبه)
كرهتها :: فيا ربما قد غص بالماء
(فإن ترمني غفلة قرشية : شاربه)
(وأن تر مني وثبة أموية :: فهذا وهذا كل ذا أنا صاحبه)
(فلا تأمنني والحوادث جمة : فإنك تجزي بالذي أنت كاسبه)
(فلا تعد ما يأتيك مني وإن تعد :: يقمن به يوما عليك نوادبه)
(فلا تمنعن الناس حقا علمته : ولا تعطين ما ليس للناس
(فإنك أن تعطي الحقوق فإنما :: واجبه)
النوافل شيء لا يثيبك واهبه)
::
:

فلما ورد الكتاب على الحجاج كتب إلى أمير المؤمنين أما بعد فقد ورد كتاب أمير المؤمنين بذكر إسرافي وتبذيري في الأموال ولعمري ما بلغت في عقوبة أهل المعصية ولا قضيت حقوق أهل الطاعة فإن كان قتلي العصاة إسرافا وإعطائي المطيعين تبذيرا فليمض لي أمير المؤمنين ما سلف والله ما أصبت القوم خطأ فأوديهم ولا ظلمتهم عمدا فأقاديهم ولا قتلت إلا لك ولا أعطيت إلا فيك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته وكتب في أسفل الكتاب:

(إذا أنا لا أبغي رضاك واتقي :: أذاك فليلي لا توارى كواكبه)
(وما لامرىء بعد الخليفة جنة : تقيه من الأمر الذي هو
(إذا قارف الحجاج فيك خطيئة :: راكبه)
(إذا أنا لم أدن الشفيق لنصحه : لقامت عليه بالصباح نوادبه)
(وأعط المواسي في البلاء :: واقص الذي تسري إلي
عطية : عقاربه)
(فمن يتقي بؤسي ويرجو :: لرد الذي ضاقت علي مذاهبه)
مودتي : ويخشى غدا والدهر جم

(وأمري إليك اليوم ما قلت :: نوائبه
قلته : وما لم تقله لم أقل ما يقاربه)
(ومهما أردت اليوم مني أردته :: وما لم ترده اليوم إني مجانبه)
وقف بي على حد الرضا لا : مدى الدهر حتى يرجع
أجوزه :: الدرحالبه)
(وإلا فدعني والأمور فإنني : شفيق رفيق أحكمته تجاربه)
(1)

::
:
::
:
::
:

صف لي الفتنة حتى كأني أراها رأي العين:

- كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجَّاج: صف لي الفتنة حتى كأني أراها رأي العين. فكتب إليه: لوكنت شاعرا- لوصفتها لك في شعري، ولكني أصفها لك بمبلغ رأيي وعلمي، الفتنة تلقح بالنجوى، وتنتج بالشكوى، فلما قرأ كتابه، قال: إن ذلك لكما وصفت، فخذ من قبلك بالجماعة، وأعطهم عطايا الفرقة، واستعن عليهم بالفاقة، فإنها نعم العون على الطاعة، فأخبر بذلك أبو جعفر المنصور فلم يزل عليه حتى مضى لسبيله.

- قال عبد الملك بن مروان: لقد كنت أمشي في الزرع فأتقي الجندب أن أقتله، وإن الحجاج اليوم ليكتب إليّ بقتل فئام من النّاس فما أحفل بذلك.

فما صنعت يا شعبي؟

دخل الشعبي على عبد الملك بن مروان، فقال له: يا شعبي! بلغني أنه اختصم إليك رجلٌ وامرأته، فقضيتَ للمرأة على زوجها، فقال فيك

(1) المستطرف، 1 /119.

شعرا-، فأخبرني بقصتيهما وأنشدني الشعر إن كنت سمعته. فقال: يا أمير المؤمنين! لا تسألني عن ذلك. فقال: عزمت عليك لتخبرني. قال: نعم، اختصمت إلى امرأة وبعلها، فقضيت للمرأة إذ توجه لها القضاء، فقام الرجل وهو يقول:

::
:
::
:
::

فُـــتِن الشّـــعْبيُّ لّمـــا : رَفَـــعَ الطَّـــرْفَ إليهـــا
بفتـــاةٍ حـــين قامـــتْ :: رفَعَـــتْ مَأكَمَتَيْهـــا
ومشـــت مشـــيا- رُوَيْـــدا- : ثـــم هـــزّت مِنكبَيْهـــا
فتنتـــــهُ بقـــــوامٍ :: وبخطَّـــــيْ حاجبيهـــــا
وبنـــــانٍ كالمَـــــدَارِي : واسْـــــودادِ مُقْلتَيْهـــــا
قـــال للجلَّـــوَازِ قَـــرِّب :: هَاوأحْضِـــر شـــاهديْها
فقضـــى جـــورا- علينـــا : ثـــم لـــم يَقْـــضِ عَلَيهـــا
كيـــف لـــو أبْصـــرِ منهـــا :: نحرَهـــا أو سَـــاعِدَيها
لصَـــباَ حتـــى تَـــرَاهُ : سِـــاجدا- بـــينَ يَـــدَيْها
بنـــتُ عيســـى بـــن حَـــرادٍ :: ظُلِـــمَ الخَصْـــمُ لَـــدَيْها

:
::
:
::
:

قال عبد الملك: فما صنعت يا شعبي؟ قال: أوجعتُ ظهرهَ حين جوّرني في شعره.

وأسألك أن تحكم بيني وبين عبد الملك بن مروان:

ضرب عبد الملك بن مروان بعثا- إلى اليمن، فأقاموا سنين، جنى إذا كان ذات ليلة وهو بدمشق، قال: والله لأعسن الليلة مدينة دمشق،

ولأسمعن ما يقول الناس في البعث الذي غربت فيه رجالهم، وغرمت فيه أموالهم. فبينما هو في بعض أزقتها إذا هو بصوت امرأة قائمة تصلي، فتسمع إليها، فلما انصرفت إلى مضجعها قالت: اللهم يا غليظ الحجب، ويا منزل الكتب، ويا معطي الرغب، ويا مؤدي الغرب. أسألك أن ترد غائبي، فتكشف به همي، وتصفي به لذتي، وتقر به عيني، وأسألك أن تحكم بيني وبين عبد الملك بن مروان الذي فعل بي هذا، فقد صير الرجل نازحا- عن وطنه، والمرأة مقلقة- على فراشها، ثم أنشأت تقول:

تطاول هذا اللّيلُ فالعينُ تدمَعُ ... وأَرّقني حُزْني وقلبيَ مُوجَعُ
فبتّ أقاسي الليلَ أرعَى نجومَهُ ... وباتَ فؤادي هامدا- يتفزّعُ
إذا غابَ منها كوكبٌ في مغيبِهِ ... لمحتُ بعيني آخرا- حين يطلعُ
إذا ما تذكرتُ الذي كان بيننَا ... وجدتُ فؤادي للهَوَى يتقطّعُ
وكلُّ حبيبٍ ذاكرٌ لحبيبِهِ ... يرَجّى لِقاهُ كلّ يومٍ ويطمعُ
فذا العرشِ فُرّج ما ترى منَ ... فأنتَ الذي ترعى أموري
صَبابتي ... وتسمعُ
دعوتُك في السّراءِ وَالضُّرِّ ... على غُلة بين الشراشيف تلْذَعُ
دعوةَ-

فقال عبد الملك لحاجبه: تعرف لمن هذا المنزل؟ قال: نعم، هذا منزل زيد بن سنان. قال: فما المرأة منه؟ قال: زوجته. فلما أصبح سأل كم تصبر المرأة عن زوجها؟ قالوا: ستة أشهر. فأمر ألا يمكث العسكر أكثر من ثلاثة أشهر.. [1].

(1) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، 1 / 6، 72، 73، 97، 178، 183، 189، 212، 228.

بي فضل:

دعا عبد الملك بن مروان رجلا- إلى غدائه، فقال له قد تغديت. قال عبد الملك: ما أقبح بالرجل أن يأكل حتى لا تكون فيه بقية للطعام! فقال: يا أمير المؤمنين! بي فضل، ولكنى كرهت أن آكل فأصير إلى ما استقبح أمير المؤمنين.. [1].

أَشْبَهُ بِهِ مِنَ التَّمْرَةِ بالتَّمْرَةِ :

في هذا حديث وذلك أن عُبَيد الله ابن زياد بن ظبيان أحَدَ بني تَيْم اللات بن ثَعْلبة دخل على عبد الملك بن مروان وكان أحدَ فُتَّاك العرب في الإسلام وهو الذي احْتَزَّ رأسَ مُصْعَب بن الزبير فدخل به على عبد الملك بن مروان وألقاه بين يديه فسَجَد عبدُ الملك وكان عبيد الله هذا يقول بعد ذلك: ما رأيت أعْجَزَ مني أن لا أكون قتلتُ عبدَ الملك فأكونَ قد جمعتُ بين قتلي ملك العراق وملك الشام في يوم واحد وكان يجلس مع عبد الملك على سريره بعد قتله مُصْعَبَ بن الزبير فَبَرِمَ به. فجعل له كرسيا- يجلس عليه فدخل يوما- وسُوَيْدُ بن مَنْجُوف السَّدُوسي جالسٌ على السرير مع عبد الملك فجلس على الكرسي مُغْضَبا فقال له عبد الملك: يا عبيدَ الله بلَغني أنك لا تشبه أباك فقال: لأَنَا أشبه بأبي من التمرة بالتمرة والبيضة بالبيضة والماء بالماء ولكني أخبرك يا أمير المؤمنين عَمَّنْ لم تنضجه الأرحام ولا وُلِدَ لتَمَام ولا أشبه الأخوال والأعمام قال: ومن ذلك؟ قال: سُوَيْد بن مَنْجُوف فقال عبد الملك: سُوَيْدُ أكذلك أنت؟ فقال: إنه ليقال ذلك وإنما عَرَّضَ بعبد الملك لأنه وُلد لسبعة أشهر فلما خرجا قال له عبيد الله: والله يا ابن عمي ما يَسُرُّني بِحلْمِكَ عليَّ حمر النعم فقال له سويد: وأنا والله ما

(1) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، 1 / 6، 72، 73، 97، 178، 183، 189، 212، 228.

يسرني بجَوَابك إياه سُودُ النَّعَم[1].

وَأَصْبَرُ مِنْ ذِي ضَاغِطٍ مُعَرَّكٍ :

قال محمد بن حبيب: كان من حديث هذين المثلين أن كلبا- أوقَعَتْ ببني فزارة يوم. العاه قبل اجتماع الناس على عبد الملك بن مروان فبلغ ذلك عبدَ العزيز بن مروان فأظهر الشماتة وكانت أمه كليبة وهي ليلى بنت الأصبع بن زبان. وأم بشر بن مروان قطبة بنت بشر بن عامر بن مالك بن جعفر فقال عبد العزيز لبشر أخيه: أما علمت ما فَعَلَ أخوالي بأخوالك؟ قال بشر: وما فعلوا؟ فأخبره الخبر فقال: أخوالُكَ أضْيَقُ أسْتَاها- من ذلك فجاء وَفْدُ بني فَزَارة إلى عبد الملك يخبرونه بما صُنِعَ بهم وأن حُرَيْث بن بَجْدل الكلبي أتاهم بعهدٍ من عبد الملك أنه مصدق فسمعوا له وأطاعوا فاغْتَرَّهم فقتل منهم نَيِّفًا وخمسين رجلا فأعطاهم عبدُ الملك نصف الحَمَالات وضَمِنَ لهم النصف الباقي في العام المقبل فخرجوا ودَسَّ إليهم بشر ابن مروان مالا فاشْتَرَوُا السلاح والكُرَاع ثم اغْتَرُّوا كلبا ببني فزارة فَلَقُوهم ببنات قين فتعدَّوْا عليهم في القتل فخرج بشر حتى أتى عبدَ الملك وعندهُ عبدُ العزيز بن مروان فقال: أما بلغك ما فعل أخوالي بأخوالك؟ فأخبره الخبر فغضب عبدُ الملك لإخفارهم ذمتَهُ وأخْذِهم مالَه وكتب إلى الحجاج يأمره إذا فَرَغَ من أمر ابن الزُّبير أن يُوقِع ببني فَزَارة إن امتنعوا ويأخُذَ مَنْ أصاب منهم فلما فرغ الحجاجُ من أمر ابن الزبير نَزَلَ ببني فزارة فأتاهم حَلْحَلَةُ بن قيس بن أشْيَمَ وسعيد بن أبان بن عُيَينة بن حِصْن بن حُذَيفة بن بدر وكانا رئيسي القوم فأخبرا الحجاج

(1) أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، مجمع الأمثال، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة - بيروت، 1 /386.

أنهما صاحبا الأمر ولا ذنْبَ لغيرهما فأوثقهما وبَعَثَ بهما إلى عبد الملك فلما أدْخِلاَ عليه قال: الحمدُ لله الذي أقاد منكما قال حلحلة: أما والله ما أقادمني ولقد نَقَضْتُ وِتْرَي وشَفَيْتُ صَدْرِي وبردت وَحْرِي قال عبد الملك: مَنْ كان له عند هذين وِتر يطلبه فليقم إليهما فقام سفيان بن سُوَيْد الكلبي - وكان أبوه فيمنقتل يوم بنات قين - فقال: يا حلحلة هل حست لي سُوَيدا قال: عهدي به يوم بنات قن وقد انقطع خُرْؤه في بطنه قال: أما والله لأقتلنك قال: كذبت والله ما أنت تَقْتُلني وإنما يقتلني ابنُ الزرقاء والزرْقَاء إحدى أمهات مَرْوَان بن الحكم وكانت لها راية وكانوا يُسَبُّون بالزرقاء فقال بشر: صَبْرا- حَلْحَلُ فقال: إي والله:

أصْبَرُ مِن عَوْدٍ بجنبه جُلَبْ ⁝ قد أثَّرَ البِطَانُ فِيهِ وَالحقَبْ

ثم التفت إلى ابن سُوَيد فقال: يا ابن استها أجدِ الضربَةَ فقد وقعت مني بأبيك ضربةٌ أَسْلَحَتْهُ فضرب عنقَه ثم قيل لسعيد نحو ما قيل لحلحلة فردَّ مثلَ جواب حلحلة فقام إليه رجل من بني عليم ليقتله فقال له بشر: اصْبِرْ فقال:

أصْبَرُ مِن ذِي ضَاغِطٍ مُعَرَّكِ ⁝ أَلْقَى بَوَانِي زَوْرِهِ لِلْمَبْرَكِ

ويروى " من ذي ضاغط عَرَكْرَكِ " وهو البعير الغليظ القويُّ والضاغط: الْوَرَمُ في إبط البعير شِبْهُ الكيس يضغطه أي يضيقه ويقال: " فلان جيد البَوَانِي " إذا كان جيدَ القوائم والأكتاف [1].

(1) أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، مجمع الأمثال، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة - بيروت، 1 / 119..

عبد الملك والغلام العاشق:

عن أبي ريحانة أحد حجاب عبد الملك بن مروان قال: كان عبد الملك يجلس في كل أسبوع يومين جلوسا- عاما-، فبينا هو جالس في مستشرف له، وقد أدخلت عليه القصص، إذ وقعت في يده قصةٌ غير مترجمة، فيها: إن رأى أمير المؤمنين أن يأمر جاريته فلانة تغنيني ثلاثة أصوات ثم ينفذ في ما شاء من حكمه. فاستشاط من ذلك غضبا-، وقال: يا رباح علي بصاحب هذه القصة. فخرج الناس جميعا-، وأدخل عليه غلام من أجمل الفتيان وأحسنهم، فقال له عبد الملك: يا غلام! أهذه قصتك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين! قال: وما الذي غرك مني؟ والله لأمثلن بك، ولأردعن بك نظراءك من أهل الخسارة. علي بالجارية! فجيء بها كأنها فلقة قمر، وبيدها عود، فطرح لها الكرسي، فجلست، فقال عبد الملك: مرها يا غلام! فقال لها: غنيني يا جارية بشعر قيس بن ذريح:

لقد كنتِ حسبَ النفسِ لوْ دامَ :: وِدُّنا : وَلَكِنَّمَا الدُّنْيَا مَتَاعَ غُرُورِ
وَكنّا جميعا- قَبلَ أنْ يَظهَرَ :: الهَوَى : بِأنْعَمِ حَالَيْ غِبْطَة- وَسُرُورِ
فَمَا بَرِحَ الوَاشُونَ حَتى بَدَتْ :: لَنَا : بُطُونُ الهَوَى مَقْلُوبَة- لِظُهُورِ

فغنت، فخرج الغلام بجميع ما كان عليه من الثياب تخريقا-، ثم قال له عبد الملك: مرها تغنك الصوت الثاني! فقال: غنيني بشعر جميل:

ألا ليتَ شِعري هلْ أبيتَنْ لَيلةً- :: بِوَادي القرَى إني إذا- لسَعيدُ
إذا قلتُ ما بي يا بُثَيْنَةُ قَاتِلي : مِن الْحُبِّ قالت: ثابتٌ ويَزِيدُ
وَإن قلتُ رُدي بعض عقلي :: معَ النّاسِ قالت: ذاكَ منك بَعيدُ

أَعـــــــــش بـــــــــــه : وَلا حُبّهَـا فِيمـا يَبِيـدُ يَبِيـدُ
فَلا أنا مَرْدُوْدٌ بما جِئتُ طالِبا- :: وَيَحيَـا إذا فَارَقتُهـا، فَيَعُـودُ
يَمـوتُ الهَـوَى منّـي إذا مـا : لَقيتُهـــــــــــــــا ::
:
::
:

قال: فغنته الجارية، فسقط الغلام مغشيا- عليه ساعة-، ثم أفاق، فقال له عبد الملك: مرها فلتغنك الصوت الثالث! فقال: يا جارية غنيني بشعر قيس بن الملوح المجنون:

وَفي الجيرَة الغادينَ من بَطنِ :: غَزَالٌ غَضيضُ المُقلَتينِ رَبيبُ
وَجـــــــــــــــرَةٍ :
فَلا تَحسَبي أنَّ الغَريبَ الذي :: وَلَكِنَّ مَن تَنأينَ عَنهُ غَرِيبُ
نـــــــــأى :

فغنته الجارية، فطرح الغلام نفسه من المستشرف فلم يصل إلى الأرض حتى تقطع، فقال عبد الملك: ويحه لقد عجل على نفسه، ولقد كان تقديري فيه غير الذي فعل، وأمر، فأخرجت الجارية من قصره، ثم سأل عن الغلام، فقالوا: غريب لا يعرف إلا أنه منذ ثلاث ينادي في الأسواق ويده على رأسه:

غدا- يكثُرُ الباكونَ مِنّا وَمِنكُمُ :: وَتَزدادَ دارِي من دِيارِكَمُ بُعدا
: (1)

وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلبٍ ينقلبون:

خطب عبد الملك بن مروان، فلما انتهى إلى موضع العظة من خطبته قام إليه رجل من آل صوحان فقال: مهلا- مهلا-، إنكم تأمرون ولا تأتمرون، وتنهون ولا تنتهون، وتعظون ولا تتّعظون، أفنقتدي بسيركم في أنفسكم، أم نطيع أمركم بألسنتكم؟ فإن قلتم: اقتدوا بسيرتنا

(1) السرّاج القارئ، مصارع العشاق، 145.

فأنّى وكيف، وما الحجّة، وأين النصر من الله عزّ وجلّ في الاقتداء بسيرة الظّلمة الخونة الذين اتخذوا مال الله دولا-، وعباده خولا-؟ وإن قلتم: أطيعوا أمرنا، واقبلوا نصيحتنا، فكيف ينصح غيره من يغشّ نفسه؟ وكيف تجب الطاعة لمن لم تثبت عدالته؟ وإن قلتم: خذوا الحكمة حيث وجدتموها، واقبلوا العظة ممن سمعتموها، فعلام قلّدناكم أزمّة أمورنا، وحكّمناكم في دمائنا وأموالنا وأديانا؟ وما تعلمون أنّ فينا من هو أفصح بصنوف اللغات، وأعرف بوجوه الكلام منكم، فتحلحلوا لهم عنها، وإلّا فأطلقوا عقالها، وخلّوا سبيلها، يبتدر إليها من شردتموهم في البلاد، وقتلتموهم في كلّ واد؛ وأما لئن ثبتت في أيديكم لاستيفاء المدة، وبلوغ الغاية، وعظم المحنة، إنّ لكلّ قائمٍ يوما- لا يعدوه، وكتابا- يتلوه:{ژژڑڑکک} [الكهف: ٤٩]، {ئېئىئىی} [الشعراء: ٢٢٧].

لا يتكلّم أحدٌ بإعراب؟

قال محمد بن شهاب الزّهري: كنت عند عبد الملك بن مروان فدخل عليه رجلٌ حسن الفصاحة، فقال له عبد الملك: كم عطاؤك؟ قال: مائتا دينار، قال: في كم ديونك؟ قال: في مائتي دينار، قال: أما علمت أنّي أمرت أن لا يتكلّم أحدٌ بإعراب؟ قال: ما علمت ذلك، قال: أمن العرب أنت أم من الموالي؟ قال: يا أمير المؤمنين، إن تكن العربية أبا- فلست منها، وإن تكن لسانا- فإنّي منها، قال: صدقت، قال الله تعالى:{ٹۀہ} [الشعراء: ١٩٥].

حقيقٌ بأن لا يقرّ على عمل:

استوفد عبد الملك بن مروان عاملا- بلغه أنّه قبل هديّة- فقال له: أقبلت هديّة-؟ قال: يا أمير المؤمنين، بلادك عامرة، ورعيّتك راضية،

فقال: أجب عمّا تسأل عنه، قال: نعم، فقال عبد الملك: أما والله لئن كنت قبلت هدية- كافأت صاحبها بأن ولّيته من عملنا ما لم تكن لتولّيه لولا هديّته إنك للئيم، وإن كنت قبلتها ولم تعوّضه منها إنّك لخائنٌ حسود، وإن كنت أعطيته مثل ما أخذت وأطعمت في نفسك رعيّتك وعرّضتها لخليفتك إنّك لأحمق، ومن أتى شيئا- لا يخلو فيه من حمقٍ أو لؤمٍ أو خيانةٍ حقيقٌ بأن لا يقرّ على عمل.

حسنة بين سيئتين:

قال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز وهو صبي: كيف نفقتك على عيالك؟ فقال: حسنة بين سيئتين، فقال لمن حوله: أخذه من قول الله تعالى: {ﯱﯲﯳﯴﯵﯶﯷﯸﯹﯺ} [الفرقان: ٦٧].

أراك يا أمير المؤمنين ذاكرا- ما قلت؟

قال مالك بن عمارة: كنت ربما جالست عبد الملك بن مروان وقبيصة بن ذؤيب وعروة بن الزبير في ظل الكعبة أيام الموسم، فنخوض مرة في الفقه ومرة في المذاكرة ومرة في أخبار الناس وأشعار العرب، فكنت لا أجد عند أحد ما أجد عند عبد الملك، من اتساعه في المعرفة، وتصرفه في فنون العلم، وحسن استماعه إذا حدث، وحلاوته إذا حدث؛ قال: فتفرق أصحابنا ذات ليلة وبقيت أنا وهو، فقلت: والله إني بك لمسرور لما أرى من كثرة تصرفك، وحسن حديثك، وإقبالك على جليسك، فقال لي: إنك إن تعش قليلا- فسوف ترى العيون إلي طامحة، والأعناق إلي قاصره، فإذا كان ذلك فلا عليك أن تعمل إلى فلا ملآن يديك فلما أفضت الخلافة إليه اتيته فكان أول ما وقعت عينه علي وهو على المنبر، كشر في وجهي وبسر، فقلت: لم يثبتني معرفة، أو عرفني فأظهر لي نكره، لكني لم أبرح من مكاني حتى قضى الصلاة ودخل المقصورة، فلم يلبث إلا ريثما دخل

إذ خرج آذانه فقال: أين مالك بن عمارة قلت ها أنا ذا فأخذا بيدي فادخلني إليه فلما رأني مد يده إلي ثم قال: تراءيت في موضع لم يجز فيه إلا ما رأيت من الإعراض والانقباض، فأما الآن فحي هلا بك، كيف كنت بعدي وكيف كان مسيرك؟ قلت: خير، وعلى ما يحب أمير المؤمنين، فقال: أتذكر ما كنت قلت لك؟ قلت: أجل، هو أعملني إليك يا أمير المؤمنين، قال: والله ما هو ميراث ادعيناه، ولكني أخبرك عن نفسي بشيء سميت بي إلى موضعي هذا: ما داهنت ذا ود ولا قرابة قط، ولا شمت بمصيبة عدو، ولا أعرضت عن محدث حتى ينتهي، ولا قصدت لكبيرة من محارم الله تلذذا- بها ولا واثبا- عليها، وكنت من عبد مناف في بيتها، ومن بيتها في واسطة قلادتها، وكنت أرجو بهذه أن يرفع الله تعالى مني وقد فعل، ثم قال: يا غلام بوئه منزلا- في منزلي، فأخذ الغلام بيدي وقال: انطلق، فكنت في أخفض حال وألين بال، حيث يسمع كلامي وأسمع كلامه، فإذا حضر طعامه أو قعد لأصحابه أتاني الغلام فقال: إن شئت صرت إلى أمير المؤمنين فإنه قاعد لبطانته، فأمشي بلا حذاء ولا رداء، فيرفع من مجلسي، ويقبل علي ويحادثني ويسألني عن الحجاز مرة وعن العراق مرة، حتى إذا مضت عشرون ليلة، تعشيت في آخرها معه وقام من حضر، ونهضت لأقوم فقال: على رسلك أيها الرجل، فقعدت، فقال: أي الأمرين أحب إليك؟ المقام قبلنا، فلك النصفة في المحافظة والمخالطة والمعشرة، أم الشخوص فلك الحباء والكرامة؟ فقلت: خرجت من أهلي على أني زائر لأمير المؤمنين - أكرمه الله - وعائد إليهم، فإن أمرني بالمقام اخترت فناءه على المال والأهل والولد، قال: بل أرى لك الرجوع إلى أهلك فإنهم متطلعون إلى قدومك، فتحدث بهم عهدا- ويحدثون بك مثله، والخيار في زيارتنا والمقام فيهم إليك، وقد أمرت

لك بعشرين ألف دينار وحملتك وكسوتك، أتراني ملأت يديك؟ فقلت: أراك يا أمير المؤمنين ذاكرا- ما قلت؟ قال: أجل، ولا خير فيمن لا يذكر إذا- وعد، ولا ينسى إذا أوعد، ودع إذا شئت صحبتك السلامة؛ قال: فودعته وقبضت المال وانصرفت، فكان آخر العهد به [1].

أتعرف عبد الملك؟

انقطع عبد الملك بن مروان عن أصحابه فانتهى إلى أعرابي فقال له: أتعرف عبد الملك؟ قال: نعم جائر بائر، قال: ويحك، أنا عبد الملك بن مروان، قال: لا حياك الله ولا بياك ولا قربك، أكلت مال الله وضيعت حرمته، قال: ويلك أنا أضر وانفع، قال: لا رزقني الله نفعك، ولا دفع عني ضرك. فلما وصلت خيله قال: يا أمير المؤمنين، اكتم ما جرى فالمجالس بالأمانة.

ما يمنعني وأنا نجي أمير المؤمنين؟

دخل العجاج على عبد الملك بن مروان فقال له: يا عجاج، بلغني أنك لا تقدر على الهجاء، فقال: يا أمير المؤمنين، من قدر على تشييد الأبنية أمكنه تقويض الأخبية. قال: فما يمنعك منه؟ قال: إن لنا عزا- يمنعنا من أن نظلم، وإن لنا حلماص يردعنا عن أن نهضم، فعلام الهجاء؟ قال: لكلامك أشعر من شعرك، فأي عز لك يمنعك من أن تظلم؟ قال: الأدب البارع والفهم الناصع. قالك فما الحلم الذي يردعك أن تظلم؟ قال: الأدب المستطرف والطبع التالد. قال: يا عجاج، قال: ما يمنعني وأنا نجي أمير المؤمنين؟ قال الحكم بن عبدل:

وإني لأستغني فما أبطر الغنى :: وأعرض ميسوري لمن يبتغي
وأعسر أحيانا- فتشتد عسرتي : قرضي

(1) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، 1 / 55، 272، 378، 425، 442، 496، 7/2.

ولست بذي وجهين في من عرفته :: فادرك ميسور الغنى ومعي عرضي
ولا البخل فاعلم من سمائي ولا أرضي :: :

وفي ما يروى للوليد بن عبد الملك على أنه كان مشهورا- باللحن:

من الكامل

:: :

ولقد قضيت وإن تجلل لمتي :: شيب علي رغم العدا لذاتي
من كاعبات كالدمى ومناصف : ومراكب للصيد والنشوات
في فتية تابى الهوان وجوههم :: شم الأنوف جحاجح سادات
إن يطلبوا بتراتهم يعطوا بها : أو يطلبوا لا يدركوا بترات
:: :

وقال أبو النجم العجلي:

::

والخيل تسبح بالكماة كأنها : طير تمطر في ظلال عماء
يخرجن في رهج دوين ظلاله :: مثل الجنادب من حصى
يلفظن من عجم الشكيم : المعزاء
وعضه :: زبدا- خلطن بياضه بدماء
كم من كريمة معشر أيمنها : وتركن صاحبها بدار ثواء
إن الأعادي لن تنال قديمنا :: حتى تنال كواكب الجوزاء
كم في لجيم من أغر كأنه : صبح يشق طيالس الظلماء
بحر يكلل بالسديف جفانه :: حتى يموت شمال كل شتاء
ومحرب خضل البنان إذا التقى : زحف محاترة الصدور ظماء
إنا وجدك لا يكون سلاحنا :: حجر الأكام ولا عصا الطرفاء
نأوي إلى حلق الحديد وقرح : قب تشوف نحو كل دعاء
تلكم مراكبنا وفوق كماتنا :: بيض الغضون سوابغ الأثناء
قدرن من حلق كأن شعاعها : ثلج يطيش على متون نهاء
تحمي الرماح لنا حمانا كله :: ونبيح بعد مسارح الأحياء
إن السيوف تجيرنا ونجيرها : كل يجير بعزة ووفاء
::

:

لسميت نفسي زينب:

قال عبد الملك بن مروان لثابت بن الزبير: ما ثابت من الأسماء؟ لا باسم رجل ولا بامرأة، قال: يا أمير المؤمنين، لا ذنب لي، لو كان اسمي إلى لسميت نفسي زينب، يعرض بأبيه كان يعشق زينب بنت عبد الرحمن بن هشام، وخطبها فقالت: لا أوسخ نفسي بأبي الذبان.

حسبك ما فعلت:

كان بالمدينة رجل من أهل الكتاب يقال له يوسف، موصوف بقراءة الكتب. فلقي عبد الملك بن مروان، فقال له: إن بشرتك بشارة- تسرك، ما تجعل لي؟ قال: وما مقدارها من السرور حتى يعلم مقدارها من الجعل؟ قال: أن تملك الأرض، قال: ما لي من مال، ولكن أرأيت إن تكلفت لك جعلا- أتأتيني بذلك قبل وقته؟ قال: لا، قال: فإن حرمتك، أتؤخره عن وقته؟ قال: لا، قال: حسبك ما فعلت.

وخرج عن البهو وأمر بهدمه:

قال عبد الملك بن عمير الليثي: دخلت على عبد الملك بن مروان وهو جالس في بهو على سرير وقد وضع بين يديه رأس مصعب بن الزبير. فلما رأيته قلت متعجبا-: لا إله إلا الله! لقد رأيت اليوم عجبا- تذكرت به عجائب. قال: وما ذاك؟ قلت: رأيت عبيد الله بن زياد في هذا البهو جالسا- على هذا السرير وبين يديه رأس الحسين بن علي عليه السلام، ثم دخلت بعد ذلك على المختار في هذا البهو فوجدته جالسا- على هذا السرير وبين يديه رأس عبيد الله بن زياد، ثم دخلت على مصعب في هذا البهو وهو على هذا السرير وبين يديه رأس المختار، وقد دخلت عليك يا أمير المؤمنين في هذا البهو وأنت على

هذا السرير وبين يديك رأس مصعب. فبادر عبد الملك ونزل عن السرير وخرج عن البهو وأمر بهدمه [1].

ليتني كنت غالا- أعيش بما أكتسب يوما- بيوم:

وقال سعيد بن بشر: إن عبد الملك بن مروان ليلة قبض قلق فسمع صوت قصار فقال: ما هذا؟ فأخبر، فقال حين ثقل: ليتني كنت غالا- أعيش بما أكتسب يوما- بيوم. فقيل لأبي حازم: إن عبد الملك قال كذا وكذا. فقال: الحمد لله الذي جعلهم يتمنون عند الموت ما نحن فيه، ولا نتمنى ما هم فيه [2].

والعود أحمدُ:

و يحكى أنَّ عبد الملك بن مروان رحمه الله تعالى قال يوما لحاجبه: هات بدرة! فأتى بها، فوضعها بين يديه وقال لمن حضر من وجوه العرب: أيكم أنشدني صدر هذا البيت: والعود أحمد، فله هذه البدرة! فلم يكن فيهم من يعرفه. فقال للحاجب: اخرج وانظر من بالباب من العرب، وقل: من ينشدني صدر البيت: والعود أحمد، فله جائزة! فخرج الحاجب وقال ذلك. فقام فتى من القوم فقال: أنا. قال الحاجب: فأنشدني!قال: لا!إلاّ أن أشافه أمير المؤمنين. فدخل الحاجب فأخبره فقال عبد الملك: هذا رجل طال مقامه بالباب وله حاجة. والله لئن دخل عليَّ ولم ينشدني لأعاقبنه. أدخله! فلما دخل وسلم قال له عبد الملك أنشدنا صدر بيتنا! فقال: يا أمير المؤمنين، حاجتي! قال: وما هي؟ قال: بنو عم لي باعوا ضيعتهم بالسواد فأدخلوا ضيعتي في ضيعتهم فقال عبد الملك: فإن أمير المؤمنين قد رد عليك ضيعتك

(1) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، 1 / 65، 787، 125، 142، 151، 330، 416، 2 / 498، 31/3، 111، 141،.
(2) المبرد، التعازي والمراثي، ص 31، 57.

فأنشدنا صدر بيتنا! قال: نعم يا أمير المؤمنين! قالت تميم إنه بيتها. قال أوس بن حجر:

جزينا بني شيبان صاعا بصاعهم :: وعدنا بمثل البدء والعود أحمد

قال: أخطأت! قال: يا أمير المؤمنين، أبلعني ريقي! قال: قد أبلعتك قال: قالت اليمن أنه بيتها. قال امرؤ القيس:

فإنَ كنت قد ساءتك مني خليقة :: فعودي كما نهواك والعود أحمدُ

قال: أخطأت! قال: يا أمير المؤمنين، قالت ربيعة إنّه بيتها. قال المرقش:

وأحسن فيما كان بيني وبينها :: و إن عاد بالإحسان فالعود أحمدُ

قال: أصبت، وإنك لظريف. فمن أنت؟ قال أنا زيد بن عمرو. قال: ممن؟ قال من حي جانب عجرفية قيس، وعنعنة تميم، وكسكسة ربيعة وصأصأة اليمن وتأنيث كنانة: أنا امرؤ من عذرة. فأمر له بالبدرة.

أ كنت عرفته قبل اليوم؟

و يروى إنَّ عروة بن الزبير رضي الله عنهما قال لعبد الملك بن مروان: أريد إنَّ تعطيني سيف أخي عبد الله بن الزبير. فقال له: هو بين السيوف ولا أميزه. فقال: إذا أحضرت ميزته أنا. فأمر عبد الملك بن مروان بإحضاره. فلما أحضره اخذ عروة سيفا مفلول الحد وقال: هذا سيف أخي. فقال عبد الملك: أ كنت عرفته قبل اليوم؟ قال: لا قال: فكيف عرفته؟ قال: عرفته بقول النابغة:

ولا عيب فيهم غير إنَ سيوفهم :: بهن فلول من قراع الكتائب

أذكى من إياس:

ولذكاء إياس وفراسته وفطنته أخبار عجيبة وحكايات غريبة. ومن أوّل ما كان يعرف به من ذكائه إنّه دخل الشام وهو صغير ونازع رجلا في أمر وقدمه إلى القاضي عبد الملك بن مروان، وكان القاضي يعرف الرجل فقال لإياس: أما تستحي إنَّ تقود شيخا كبيرا؟ فقال: الحق اكبر منه! قال القاضي: اسكت! قال إياس: فمن يتكلم بحجتي إذا سكت؟ فقال له القاضي ما أظنك تتكلم بحق حتى تقوم. قال إياس: أشهد أن لا إله إلاّ الله وإنَّ محمّد رسول الله! فوثب القاضي قائما ودخل على عبد الملك فأخبره خبره. فقال له عبد الملك أقض حاجته! وأصرفه عن الشام لا يفسد علينا الناس!

حتى قُتل عبد الرحمن:

حكى أبو العباس المبرد في الكامل أنَّ صاحب اليمن بعث إلى عبد الملك بن مروان بجارية وكتب معها: إني وجهت إلى أمير المؤمنين بجارية اشتريتها بمال عظيم ولم ير مثلها. وكان ذلك وقت محاربتهم لابن الأشعث. فلما دخل بالجارية على عبد الملك رأى وجها جميلا وخلقا نبيلا. فألقى إليها قضيبا كان في يده فنكست لتأخذه فرأى من جسمها ما بهره. فلما هم بها أعلمه الآذن أنَّ رسول الحجاج بالباب. فأذن له ونحى الجارية فأعطاه كتابا من عبد الرحمن بن الأشعث فيه سطور أربعة:

سائل مجاور هل جنيت لهم :: حربا تزيل بين الجيرة الخلط؟
وهل سموت بجرار له لجبٌ : جم الصواهل بين الحم والفرط؟
وهل تركت نساء الحي في ساحة الدار يستوفدن القنطِ :: ضاحية- بالقنطِ

:

وتحته:

قتل الملوك وسار تحت لوائه ::: شجر العرى وعراعر الأقوامِ

فكتب إليه عبد الملك كتابا وجعل في طيه جوابا لابن الأشعث:

ما بال من أسعى لأجبر كسره ::: حفاظا- وينوي من سفاهته
أظن خطوب الدهر بيني : كسري؟
وبينهم ::: ستحملهم مني على مركبٍ
وإني وإياهم كمن نبة القطا : وعرِ
أناة وحلما وانتظارا بهم غدا- ::: و لو لم تنبه باتت الطير لا
: تسري
::: و ما أنا بالواني ولا الضارع
: الغمرِ

قال: ثم بات يقلب كف الجارية ويقول: ما أفدت فائدة أحب إلي منك! فتقول: ما بالك يا أمير المؤمنين وما يمنعك؟ فقال: ما قاله الأخطل لأني إن خرجت منه كنت ألأم العرب:

قومٌ إذا حاربوا.. " البيت " فما إليك سبيل أو يحكم الله بيني وبين عدو الرحمن بن الأشعث. فلم يقربها حتى قُتل عبد الرحمن [1].

من كلامه - غفر الله له - :

- قال عبد الملك لمؤدِّب أولاده - وهو إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر- علمهم الصِّدق كما تعلمهم القرآن، وجنبهم السَّفِلَةَ فإنهم أسوأ الناس رِعة، وأقلهم أدبا-، وجنِّبهن الحشم، فإنَّهم بهم مفسدة، وأحفِ شعورهم تغلظ رقابهم، وأطعمهم اللحم يقْوَوا وعلمهم الشعر يمجُدُوا وينجُدُوا ومُرْهم أن يستاكوا عَرْضا- ويمصوا الماء مصًّا- ولا يُعبُّوا عبّا-، وإذا احتجت أن تتناولهم بأدب فليكن ذلك في سرٍّ لا يعلم

(1) اليوسي، زهر الأكم في الأمثال و الحكم، 1 / 84، 124، 271، 291، 296.

بهم أحد من الحاشية فيهونوا عليهم[1]

- من طالت لحيته فهو كوسج [2] فى عقله.

- وقد أوصى عبد الملك بن مروان أخاه عبد العزيز، حين وجهه إلى مصر فقال: تفقد كاتبك وحاجبك وجليسك، فإن الغائب يخبره عنك كاتبك، والمتوسم يعرفك بحاجبك، والخارج من عندك يذكرك بجليسك![3]

وصية عبد الملك لأبنائه:

عن العتبي قال: لما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة جمع ولده وفيهم مسلمة وكان سيدهم فقال: أوصيكم بتقوى الله تعالى فإنها عصمة باقية وجنة واقية، وهي أحصن كهفٍ وأزين حلية، وليعطف الكبير منكم على الصغير، وليعرف الصغير منكم حق الكبير، مع سلامة الصدور، والأخذ بجميل الأمور، وإياكم الفرقة والخلاف فبهما هلك الأولون، وذل ذوو العزة المعظمون. انظروا مسلمة فاصدروا عن رأيه فإنه نابكم الذي عنه تفترون ومجنكم الذي به تستجنون، وأكرموا الحجاج فإنه وطأ لكم المنابر وأثبت لكم الملك، وكونوا بني أم برزة وإلا دبت بينكم العقارب، كونوا في الحرب أحرارا- وللمعروف منارا-، واحلولوا في مرارةٍ، ولينوا في شدة، وضعوا الذخائر عند ذوي الحساب والألباب، فإنه أصون لأحسابهم وأشكر لما يسدى إليهم. ثم أقبل على ابنه الوليد فقال: لا ألفينك إذا مت تجلس تعصر عينيك وتحن حنين الأمة، ولكن شمر وائتزر والبس جلدة نمر

(1) البداية والنهاية، 389/11، والرعة: قلة الورع.
(2) الكوسج: الذي لا شعر على عارضيه والناقص الأسنان والبطيء من البراذين والجمع كواسج.
(3) ابن الأبار، إعتاب الكتاب، ص 23.

ودلني في حفرتي وخلني وشأني وعليك وشأنك، ثم ادع الناس إلى البيعة فمن قال هكذا فقل بالسيف هكذا. ثم أرسل إلى عبد الله ابن يزيد بن معاوية وخالد بن أسيد فقال: هل تدريان لم بعثت إليكما؟ قالا: نعم لترينا أثر عافية الله تعالى إياك، قال: لا، ولكن قد حضر من الأمر ما تريان، فهل في أنفسكما من بيعة الوليد شيء؛ فقالا: لا، والله ما نرى أحدا- أحق بها منه بعدك يا أمير المؤمنين، وقال: أولى لكما، أما والله ولو غير ذلك قلتما لضربت الذي فيه أعينكما، ثم رفع فراشه فإذا السيف مشهور، ولم يزل بين مقالتين حتى فاظ، مقالته الأولى:

فهل من خالدٍ إما هلكنا ⁝ وهل بالموت يا للناس عار

ومقالته الثانية: الحمد لله الذي لا يبالي من أخذ من خلقه أو ترك، صغيرا- أو كبيرا-، حتى مات، فسجاه الوليد، وكان هشام أصغر ولده فقال:

وما كان قيس هلكه هلك واحدٍ ⁝ ولكنه بنيان قومٍ تهدما

فلطمه الوليد ثم قال له: اسكت يا بن الأشجعية فإنك أحول أكشف، تنطق بلسان شيطان، ألا قلت:

إذا مقرم منا ذرى حد نابه ⁝ تخمط منا ناب آخر مقرم

فقال مسلمة: إياكم والضجاج فإنكم إن صلحتم صلح الناس، وإن فسدتم كان الفساد أسرع، ثم قال:

لقد أفسد الموت الحياة وقد أتى ⁝ على شخصه يوم علي عصيب
فإن تكن الأيام أحسن مرة ⁝ إلي فقد عادت لهن ذنوب
أتى دون حلو العيش حتى أمره ⁝ نكوب على آثارهن نكوب

فقال سليمان: مات والله أمير المؤمنين وصار في منزلة هو فيها والذليل الضعيف سواء. ثم صعد المنبر الوليد فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال: إنا لله وإنا إليه راجعون يا لها مصيبة ما أعظمها وأفظعها، وأخصها وأعمها وأوجعها، موت أمير المؤمنين، ويا لها نعمة- ما أعظمها وأجسمها وأوجب الشكر علي لله فيها: خلافته التي سربلنيها. فكان أول من عزى نفسه وهنأها بالخلافة. ثم قال: انهضوا رحمكم الله فبايعوا على بركة الله. فلما بايعه الناس جلس مجلس عبد الملك وجمع أهل بيته ثم قال:

::
:
::

ألقوا الضغائن والتحاسد بينكم : عند المغيب وفي الحضور
بصلاح ذات البين طول بقائكم :: الشهد
فلمثل ريب الدهر ألف بينكم : إن مد في عمري وإن لم يمدد
وانفوا الضغائن والتخاذل :: بتواصلٍ وتراحمٍ وتوددٍ
عنكم : بتكرمٍ وتوازرٍ وتغمد
حتى تلين جلودكم وقلوبكم :: لمسودٍ منكم وغير مسود
إن القداح إذا اجتمعن فرامها : بالكسر ذو حنقٍ وبطش أيد
عزت فلم تكسر وإن هي بددت :: فالوهن والتكسير للمتبدد

:
::
:

- وقال عبد الملك بن مروان: لأن أخطئ وقد استشرت أحب إلي من ان أصيب وقد استبددت برأي فإمصيه عن غير مشورة، لأن المقدم على رأيه يزري به أمران: تصديقه رأيه الراجب عليه تكذيبه، وتركه من المشورة ما يزداد في أمره بصيرة. وقد قال الشاعر:

إن الأمر آشكل إنفاذه :: ولم تر منه سبيلا- فسيحا

فشاور بأمرك في سره : أخاك أخاك اللبيب النصيحا
فيا ربما فرح الناصحون :: وأبدوا من الرأي رأيا-
ولا يلبث المستشير الرجال : صحيحا
:: إذا هو شاور أن يستريحا[1]
:
::
:

- وقال عبد الملك بن مروان لبنيه: كلكم يترشح لهذا الأمر، ولا يصلح له منكم إلا من كان له سيف مسلول، ومال مبذول، وعدل تطمئن إليه القلوب.

- وقال عبد الملك بن مروان: إن أفضل الرجال من تواضع عن رفعة، وزهد عن قدرة، وأنصف عن قوة.

- وقال عبد الملك بن مروان لابنه الوليد، وكان ولي عهده: يا بني، اعلم أنه ليس بين السلطان وبين أن يملك الرعية أو تملكه الرعية إلا حزم أو توان.

- وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف:

::
ولا تفش سرك إلا إليك : فإن لكل نصيح نصيحا
فإني رأيت غواة الرجا :: ل لا يتركون أديما- صحيحا
:

- وأوصى عبد الملك بن مروان أميرا- سيره إلى أرض الروم فقال: أنت تاجر الله لعباده، فكن كالمضارب الكيس الذي إن وجد ربحا- تجر، وإلا تحفظ برأس المال. ولا تطلب الغنيمة حتى تحرز السلامة، وكن من احتيالك على عدوك أشد حذرا- من احتيال عدوك عليك.

(1) ابن الحداد، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس، ص 24، 29.

- وقال عبدُ الملك بن مَروان لبَنِيه: عليكم بطلب الأدب فإنكم إن احتجتم إليه كان لكم مالا-، وإن اسْتَغنيتم عنه كان لكمٍ جمالا-.

- مَن كان في يده شيءٌ فلْيُصْلحه، فإنه في زمان إن احتاج فيه فأوّل ما يَبْذُل دينهُ.

- أَرْبعة لا يُسْتحي من خِدْمتهم: الإمام والعالِم والوالد والضيف.

- اللحنُ في الكلام أقبح من التَّفتيق في الثوب والجُدَريّ في الوجه.

- الإعراب جمالٌ للوَضِيع، واللحن هُجْنة على الشَّرِيف.

- قال: تَعلَّموا النحوَ كما تتعلّمون السّ-نن والفرائض.

- ثلاثة لا يَنبغي للعاقل أن يَستخِفَّ بهم: العُلماء والسُّلطان والإخْوان. فمن أستخفَّ بالعُلماء أفْسد دينَه، ومَن استخفَّ بالسُّلطان أفسد دُنياه، ومن استخفَّ بالإخوان أفسد مرُوءته.

- وقال عبد الملك بنُ مَرْوَان لبَنيه: كُفّوا الأذى، وابذُلوا المعرِوف، واعْفوا إذا قَدَرْتم!، ولا تَبْخَلوا إذا سئلتم، ولا تُلْحِفوا إذا سألتم، فإنه من ضيّق ضُيِّق عليه، ومن أعطى أخْلَفَ اللهّ عليه.

- قال العُتْبيّ: كان عبد الملك بن مَرْوان يَدْعو على المِنْبر: يا ربّ، إن ذُنوبي قد كَثُرت وجَلّت عن أن تُوصف، وهي صَغيرة في جَنْب عَفْوك، فاعفُ عنّي [1].

- كان عبد الملك بن مروان يقول لمؤدب ولده: علمهم العوم، وهذبهم بقلة النوم.

(1) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، 1 / 6، 10، 12، 19، 23، 37، 71، 90، 118، 136، 138، 274، 143، 144، 155، 161، 183، 194، 199، 229، 240، 241، 274، 248، 254، 271، 305، 336.

- وقال عبد الملك بن مروان: الصمت نومٌ والنُّطق يقظة [1].

- قال عبد الملك بن مروان: أفضل النّاس من تواضع عن رفعة، وزهد عن قدرة، وأنصف عن قوة.

- قال عبد الملك بن مروان لمؤدب بنيه: إنه - والله - ما يخفى علي ما تعلمهم وتلقيه إليهم، فاحفظ عني ما أوصيك به: علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن، واحملهم على الأخلاق الجميلة، وعلمهم الشعر يسمحوا ويمجدوا وينجدوا، وجنبهم شعر عروة بن الورد، فإنه يحمل على البخل، وأطعمهم اللحم يقووا ويشجعوا، وجز شعورهم تغلظ رقابهم، وجالس بهم أشراف الناس وأهل العلم منهم، فإنهم أحسن الناس أدبا- وهديا-، ومرهم فليستاكوا، وليمصوا الماء مصا-، ولا يعبوه عبا-، ووقرهم في العلانية، وأدبهم في السر، واضربهم على الكذب كما تضربهم على القرآن، فإن الكذب يدعو إلى الفجور، والفجور يدعو إلى النار، وجنبهم شتم أعراض الرجال، فإن الحر لا يجد من شتم عرضه عوضا-، وإذا ولوا أمرا- فامنعهم من ضرب الأبشار؛ فإنه على صاحبه عار باق ووتر مطلوب، واحثثهم على صلة الرحم. واعلم أن الأدب أولى بالغلام من النسب [2].

وقال عبد الملك بن مروان: ما الناس إلى شيء من الأدب أحوج منهم إلى إقامة ألسنتهم التي بها يتعاودون الكلام، ويتعاطون البيان، ويتهادون الحكمة، ويستخرجون غوامض العلم من مخابئها، ويجمعون ما تفرَّق منها، فإن الكلام قاضٍ يحكم بين الخصوم، وضياءٌ يجلو الظُّلم، حاجة الناس إلى موادِّه حاجتهم الى مواد الأغذية.

(1) المستطرف، 1 /119.
(2) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، 1 / 6، 72، 73، 97، 178، 183، 189، 212، 228.

قال أسامة بن منقذ: وبذلك عَبَّرَ ابْنُ سيرين رؤيا عبد الملك بن مروان حين بَعَثَ إليه: إني رأيتُ في المنام أني قمتُ في محراب المسجد وبُلْت فيه خمس مرات فكتب إليه ابنُ سيرين: إن صَدَقَت رؤياك فسيقومُ من أولادك خمسة في المحراب ويتقلدون الخلافة بعدك فكان كذلك [1].

- من كان الحرص شعاره، كان البخل دثاره.

- القلم شجرة ثمرتها الألفاظ، والفكر بحر لؤلؤه الحكمة.

قال عبد الملك بن مروان: الهدية السحر الحلال. [2].

- أربعة لا يستحيى من خدمتهم: السلطان والولد والضيف والدابة.

- اطلبوا معيشة لا يقدر سلطان جائر على غصبها، قيل: وما هي، قال: الأدب.

- اللحن هجنة على الشريف والعجب آفة الرأي.

- وروي أن عبد الملك بن مروان كتب إلى الحجاج: لا تولين الأحكام بين الناس جاهلا- بالأحكام، ولا حديدا- طائشا- عند الخصام، ولا طمعا- هلعا- يقرب أهل الغنى ويبش بأهل السعة فيكسر بذلك أفئدة ذوي الحاجة، ويقطع ألسنتهم عن الأدلاء بالحجة والإبلاغ في النصفة، واعلم أن الجاهل لا يعلم، والحديد لا يفهم، والطائش القلق لا يعقل، والطمع الشره لا ينفع عنده الحجة ولا تغني قبله البينة [3].

(1) أسامة بن منقذ، لباب الآداب، ص 68.

(2) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، 1 / 55، 272، 378، 425، 442، 496، 7/2.

(3) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، 1 / 65، 787، 125، 142، 151، 330، 416، 2 / 498، 31/3، 111، 141،.

- وأوصى عبد الملك بن مروان حين حضرته الوفاة فقال لبنيه: أوصيكم بتقوى الله، فإنها عصمة باقية وجنة واقية. والتقوى خير زاد، وأفضل في المعاد، وأحصن كهف، وأزين حلية. ليعطف الكبير منكم على الصغير وليعرف الصغير منكم حق الكبير مع سلامة الصدور والأخذ بجميل الأمور. فإنكم إذا فعلتم ذلك كنتم للعز خلقاء، وهابتكم الأعداء. إياكم والتباغي والتحاسد فإن بهما هلك الملوك الماضون، وذوو العز المتكبرون. انظروا يا بني، مسلمة بن عبد الملك فاصدروا عن رأيه، فإنه نابكم الذي تفترون عنه، ومجنكم الذي تستجنون به. وأكرموا الحجاج، فإنه الذي وطأ لكم المنابر، وكفاكم قحم تلك القناطر. كونوا أولادا- أبرارا-، وفي الحرب أحرارا-، وللمعروف منارا-، واحلولوا في مرارة، ولينوا في شدة. ثم رفع رأسه إلى الوليد فقال: لا ألفينك يا وليد، إذا وضعتني في حفرتي تعصر عينيك كما تفعل الأمة، بل شمر واتزر، والبس جلد نمر، وادع الناس إلى البيعة، فمن قال برأسه هكذا فقل بالسيف هكذا. أوصيك بأخيك عبد الله بن عبد الملك وبعمر بن عبد العزيز خيرا-. لا تعزلهما ولا تستبدل بهما. وأوصيك بابن عمنا هذا خيرا- يعني علي بن عبد الله بن العباس. فأما الحجاج فلست تستغني عنه.

ثم أرسل إلى خالد وعبد الله، ابني يزيد بن معاوية. فلما جلسا قال: ما تقولان: أأقيلكما بيعة الوليد؟ قالا: معاذ الله يا أمير المؤمنين. قال: لو قلتما غير ذلك لقتلتكما على حالي هذه. قوما. فقاما فخرجا. ثم دعا بقداح بعدة ولده فأمر بها فجمعت ثم دفعها إلى الوليد فقال: اكسرها. فلم يقدر على ذلك. ثم دفعت إلى آخر، ثم آخر، حتى استقراهم جميعا- ، فأعياهم كسرها، فأمر بها ففرقت، ثم دفع إلى كل واحد منهم قدحا- وأمره بكسره ففعل، فقال: هكذا أنتم بعدي، إن اجتمعتم لم يكسر أحد،

وإن تفرقتم كسرتم. وقال: احفظوا عني هذه الأبيات:

انفوا الضّغائن عنكم وعليكم ... عند المغيب وفي الحضور الشّهّد
بصلاح ذات البين طول بقائكم ... إن مدّ في عمري وإن لم يمدد
فلمثل ريب الدّهر ألّف بينكم ... بتواصلٍ وتراحمٍ وتودّد
حتّى تلين قلوبكم وجلودكم ... لمسوّدٍ منكم وغير مسوّد
إنّ القداح إذا أجتمعن فرامها ... بالكسر ذو حنقٍ وكسرٍ أيّد
عزّت فلم تكسر وإن هي بدّدت ... فالوهن والتّكسير للمتبدّد

فلما توفي سجاه الوليد، ثم صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال: لم أر مثلها مصيبة- ولا مثلها نعمة. فقد الخليفة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، على عظم المصيبة. والحمد لله رب العالمين، على عظيم النعمة. ثم دعا الناس إلى بيعة، فبايع الناس ولم يتخلف أحد. فسمع أحد ولد عبد الملك يبكي ويقول: مات، والله، أمير المؤمنين. فقال: ويلك لا تقل هكذا، ولكن قل كما قال أخو بني أسيد أوس بن حجر: الطويل

إذا مقرمٌ منّا ذرا حدّ نابه ... تخمّط فينا ناب آخر مقرم

وأوصى أبو قيس بن صرمة الأنصاري ولده عند موته فقال: الخفيف

يا بنيّ، الأرحام لا تقطعوها ... وصلوها قصيرة- من طوال
واتّقوا الله في ضعاف اليتامى ... ربّما يستحلّ غير الحلال
اعلموا أنّ لليتيم وليّا- ... عالما- يهتدي بغير السّؤال
يا بنيّ، الأيّام لا تأمنوها ... واحذروا مكرها وكرّ اللّيالي
واعلموا أنّ مرها لنفاد ال ... خلق ما كان من جديدٍ وبال

واجمعـوا أمـركم علـى البـرّ والتـــــــــــــــــق : وى وتـرك الخنـا وأخذ الحـلال

- أوصى عبد الملك بن مروان أولاده بالتآلف والتعاضد، وتمثل بقول عبد الأعلى القرشي:

أن القـداح إذا جمعـن فرامهـا عزت فلم تكسر وإن هي بددت : بالكسـر ذو حـق وبطـش أيـد : فالكســر والتــوهين للمتبــدد

دخل بعض ولد عبد الملك بن مروان عليه باكيا- لضرب المعلم إياه فشق على عبد الملك، فأقبل عليه رجل من الخوارج فقال: دعه يبك فإنه أرحب لشدقه، وأصح لدماغه، وأذهب لصوته، وأحرى أن لا تأبى عليه عينه إذا أحقرته طاعة الله فاستدعى عبرتها. فأعجبه ذلك وسكت.

ألا رب هم يمنـع النـوم برحـه وشـوق كـأطراف الأسـنة فـي الحشـــــــــــــــا : آقـام كقـبض الـراحتين علـى الجمـــــــــــــــر : ملكـت عليـه طاعـة الـدمع أن يجـــــــــــــــري

- قال عبد الملك بن مروان: ثلاثة أشياء تدل على مقدار عقول أربابها:

الكتاب يدل على مقدار عقل كاتبه، والرسول يدل على مقدار عقل مرسله، والهدية تدل على مقدار عقل مهديها [1].

(1) الزمخشري، ربيع الأبرار، 72، 243، 484.

- وقال عبد الملك بن مروان وذكر الخمر: إن أولها لمُرّ، وآخرها لسُكر وإنها لتُذهب العقل وتكسب الجهل وتسقط المروءة وتفسد الفتوة، وتدعو إلى عشرة الوضيع وتحط درجة الرفيع، ولهي أسرع في عِرض الرجل وماله من النار في يبس العرفج [1].

* * *

(1) الرقيق القيرواني، قطب السرور في أوصاف الخمور، 115.